لماذا أنا مسلم؟

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

الصعيدى، عبد المتعال عبد الوهاب أحمد عبد الهادى، ١٨٩٤ـ ١٩٦٦
لماذا أنا مسلم؟/ عبد المتعال الصعيدى؛ تقديم محمد عمارة
نيوبوك للنشر والتوزيع
21 × 14 سم
تدمك: 9789779960333
رقم الإيداع: 26498/2019
1 ـ الإسلام ـ دعوة
أ ـ عمارة، محمد (مقدم)
ب ـ العنوان

دار النشـــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: لماذا أنا مسلم؟
الـكـاتـب: عبد المتعال الصعيدى
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmai●.com

لماذا أنا مسلم؟

تأليف

الشيخ عبد المتعال الصعيدى
من علماء الأزهر الشريف

دراسة وتقديم وتعليق

أ. د. محمد عمارة

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

المحتويات

بطاقة حياة الشيخ عبدالمتعال الصعيدى ٧
بين يدى هذا الكتاب ١٣
لماذا أنا مسلم؟ ٢٧
المتناظران ٢٩
المناظرة الأولى ٣٧
المناظرة الثانية ٤٥
المناظرة الثالثة ٥٣
المناظرة الرابعة ٥٧
المناظرة الخامسة ٦٥
المناظرة السادسة ٧١
المناظرة السابعة ٧٥
المناظرة الثامنة ٧٩
المناظرة التاسعة ٨٥
المناظرة العاشرة ٨٩

المناظرة الحادية عشرة ٩٧
المناظرة الثانية عشرة ١٠٣
المناظرة الثالثة عشرة ١٠٩
المناظرة الرابعة عشرة ١١٧
المناظرة الخامسة عشرة ١٢٣
المناظرة السادسة عشرة ١٢٩
المناظرة السابعة عشرة ١٣٧
المناظرة الثامنة عشرة ١٤٥
المناظرة التاسعة عشرة ١٥٥
المناظرة العشرون ١٦٣

(١)
بطاقة حياة
الشيخ عبدالمتعال الصعيدى

١٣١١ ـ ١٣٨٦هـ/ ١٨٩٤ ـ ١٩٦٦م

● هو عبدالمتعال عبدالوهاب أحمد عبدالهادى الصعيدى (١٣١١ ـ ١٣٨٦ هـ ١٨٩٤ ـ ١٩٦٦م).

● أحد أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد ـ مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م).

● ولد بكفر النجباء ـ مركز أجا ـ محافظة الدقهلية ـ فى ٢٩ شعبان سنة ١٣١١ هـ ـ ٧ مارس سنة ١٨٩٤م.. ولقى ربه فى ٢٣ محرم سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٣ مايو سنة ١٩٦٦م.

● بدأ تعليمه بكتاب القرية.. وبالمدرسة الإلزامية.. والمدرسة الابتدائية.. ثم التحق بالجامع الأحمدى ـ التابع للأزهر الشريف ـ بمدينة طنطا ـ وفيه ظهر نبوغه، فاجتاز مرحلة الشهادة الابتدائية فى سنة واحدة ـ بدلا من أربع سنوات ـ وذلك لأول مرة فى تاريخ المعاهد الأزهرية.

● وفى سنة ١٣٣٢هـ سنة ١٩١٢م التحق بالقسم الثانوى ـ العالى ـ بمعهد طنطا الأحمدى.

● وفى سنة ١٣٣٦هـ سنة ١٩١٨م اجتاز ـ بالقاهرة ـ امتحان الشهادة العالمية.

● وعقب تخرجه، وحصوله على العالمية، عين مدرسا بالجامع الأحمدى ـ بطنطا.

● وفى سنة ١٣٥١ هـ سنة ١٩٣٢م نقل للتدريس بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

● ولقد تعرضت حياته الوظيفية ـ بسبب جرأته الفكرية ـ للعديد من الأزمات.. فعوقب سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧م بالنقل من كلية اللغة العربية إلى المعهد الأحمدى بطنطا.. ثم أعيد ـ ثانية ـ سنة ١٣٥٨ هـ سنة ١٩٣٩م ـ للتدريس بالقسم العام بالأزهر ـ فى القاهرة ـ ولولا حماية الشيخ محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤ هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م) للشيخ عبدالمتعال لتم فصله نهائيًا من التدريس بالأزهر، وذلك بسبب معاركه الفكرية مع عدد من كبار الشيوخ.

● وفى سنة ١٣٧٠ هـ سنة ١٩٥١م أعيد إلى التدريس بكلية اللغة العربية من جديد.

● كانت حياته كلها معركة فكرية ممتدة وخصبة وحامية الوطيس ضد الجمود والتقليد ـ داخل الأزهر وخارجه.. وضد التغريب والزندقة والإلحاد.. وضد التنصير.. وتفنيدًا للشبهات التى احترف المنصرون توجيهها للإسلام.. فشارك بقلمه فى معارك إسقاط الخلافة الإسلامية

سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤م.. ومعركة كتاب الشيخ على عبدالرازق (١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م) (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٣٤٣ هـ سنة ١٩٢٥م.. ومعركة كتاب الدكتور طه حسين (١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م) (فى الشعر الجاهلي) سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٦م وأسهم فى معركة كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ خالد محمد خالد (١٣٣٩ ـ ١٤١٦ هـ ١٩٢٠ ـ ١٩٩٦م) سنة ١٣٦٩ هـ سنة ١٩٥٠م... وقام بالرد على مقال الدكتور إسماعيل أدهم (١٣٢٩ ـ ١٣٥٩ هـ ١٩١١ ـ ١٩٤٠م) (لماذا أنا ملحد؟) سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧م.

ـ بمقالين نشرتهما مجلة (الرسالة) تحت عنوان (حملة أصحاب الفيل).. كما كانت له صولات وجولات فى الدعوة إلى إصلاح التعليم فى الأزهر.. وذلك إلى جانب الكتب والمقالات التى دعت إلى تجديد العلوم اللغوية والأدبية والبلاغية والشرعية.

● ومن كلماته المعبرة عن مدرسته الفكرية واتجاهاته الإصلاحية ما قاله عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: (إنه إمام المصلحين فى هذا العصر، وخير من فقه الإسلام من أهل الأزهر).

وما كتبه عن فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أبوالوليد ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م).

(لقد نسينا ابن رشد، وعرفته أوربا، فكان له تلاميذ فيها نشروا فلسفته فى أقطارها، وساروا على ضوئها فى ركب الحضارة التى تخلفنا عنها.. لقد احتفينا بمن وقفت مدارسهم عند الطابع الدينى المحض، وغفلنا عن مدرسة ابن رشد ذات الطابع الدينى المدني).

● أما كتبه، فقد قاربت أن تكون موسوعة لقضايا العصر ـ الدينية..

والسياسية.. والحضارية.. واللغوية.. والأدبية.. والبلاغية.. والفلسفية.. والمنطقية.. والتاريخية.. كما مثلت مشروعًا لإصلاح المؤسسات التى تصوغ العقل المسلم، وتهيئ المجتمع لإقامة شريعة الإسلام، وترسيخ سمات الهوية الإسلامية وقسماتها. ومن عيون هذه الكتب ـ التى قاربت السبعين ـ منها خمسون مطبوعة.. وعشرون مخطوطة:

١ـ (الحرية الدينية فى الإسلام).

٢ـ (حرية الفكر فى الإسلام).

٣ـ (السياسة الإسلامية فى عهد النبوة).

٤ـ (السياسة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين).

٥ـ (فى ميدان الاجتهاد).

٦ـ (القرآن والحكم الاستعماري).

٧ـ (القضايا الكبرى فى الإسلام).

٨ـ (المجددون فى الإسلام).

٩ـ (المصحف المبوب والمفسر).

١٠ـ (مفاتيح كنوز القرآن).

١١ـ (من أين نبدأ؟).

١٢ـ (النظم الفنى فى القرآن).

١٣ـ (نقد كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلي).

١٤ـ (الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية).

١٥ـ (لماذا أنا مسلم؟).

● كما ترك بصماته الفكرية على العديد من الذين تتلمذوا عليه وعلى كتبه.. فى مصر ووطن العروبة وعالم الإسلام.

● عليه رحمة الله[1].

(١) ـ عصمت نصار ـ تقديم كتاب الشيخ عبدالمتعال الصعيدى (الحرية الدينية فى الإسلام) ص ٧١ ـ ٦٧. طبعة مكتبة الإسكندرية ـ سلسلة (فى الفكر النهضوى الإسلامي) ـ القاهرة سنة ٣٣٤١ هـ سنة ٢١٠٢م.

(٢)
بين يدى هذا الكتاب

لأن الإسلام قد جعل التعددية الدينية ـ فضلًا عن الفكرية ـ سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (المائدة: ٤٨).

ولأنه قد أكد سنة الاختلاف ـ التى هى فطرة إنسانية ـ بالنص الدينى المحكم قطعى الدلالة والثبوت:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

فلقد عاشت فى الاجتماع الإسلامى، وضمن الأمة الواحدة اليهودية بمذاهبها المتعددة، والنصرانية بمذاهبها المختلفة، وشارك أهلها مع المسلمين فى بناء حضارة الإسلام.

ولقد كان طبيعيًا فى مجتمعات تتعدد فيها الديانات، وتحكمها حرية الاعتقاد، أن يكون هناك حوار وجدال بين أهل هذه الديانات.. ولذلك رأينا فى تراث أئمة الفكر الإسلامى المؤلفات التى ترد على شبهات اليهود والنصارى، والتى تجيب على الأسئلة التى يوجهونها إلى علماء الإسلام.. وجدنا ذلك فى تراث أغلب هؤلاء الأئمة ـ ومنهم: ـ حجة الإسلام أبوحامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م).. وإمام الحرمين الجوينى (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م). والإمام القرافى ـ أحمد بن إدريس (٦٨٤ هـ ١٢٨٥م).. والإمام ابن حزم الأندلسى (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م).. والشهر ستانى (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣م).. وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧١٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م).. وابن القيم (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م).. والإمام محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) والشيخ محمد أبوزهرة (١٣١٦ ـ ١٣٩٤ هـ ١٨٩٨ ـ ١٩٧٤م).. وغيرهم من الأئمة الأعلام الذين جعلوا من الحوار مع اليهود والنصارى، والرد على شبهاتهم، مهمة من مهمات البحث والدرس والتأليف.

لكن هذا الذى عرفته حضارتنا ـ بسبب التعددية الدينية فى أمتنا ـ شيء.. ومواجهة (التنصير) ـ الذى يبشر بمذاهب النصرانية الغربية فى بلاد الإسلام ـ شيء آخر.

ذلك أن هذا التنصير الغربى قد مثل ـ بالنسبة لعالم الإسلام ودول الجنوب ـ (كتيبة) من كتائب الزحف الاستعمارى الغربى على ديار

الإسلام وعالم الجنوب فى العصر الحديث.. فالإمبريالية الغربية ـ التى هى أعلى مراحل الرأسمالية ـ والتى زحفت جيوش دولها الاستعمارية بحثا عن الأسواق والمواد الخام، كان لابد لها كى تخضع المستعمرات، وتشدها بحبال التبعية للمركز الغربى كان لابد لها، مع الجيوش المحاربة من (كتائب فكرية) تعمل على احتلال العقول والقلوب، وذلك حتى يكون المركز الحضارى الغربى هو القبلة والنموذج لدى شعوب المستعمرات، وحتى يتأبد احتلال الأرض ونهب الثروات.. ولتحقيق هذه الغاية كانت (كتائب الغزو الفكري) و(إرساليات المنصرين) جزءًا أصيلًا من عملية الزحف الغربى على عالم الإسلام وبلاد الجنوب فى العصر الحديث.

فبالغزو الفكرى والتغريب الثقافى تنتشر العلمانية، التى تعمل على تهميش الإسلام، عندما تحوله إلى مجرد عقيدة قلبية خاصة، وطقوس فردية، لا علاقة له بالسياسة والتشريع والسلطة والدولة والقانون والاستقلال الحضارى.. وبالتنصير ـ الذى يبشر بمذاهب النصرانية الغربية ـ يتم اقتلاع الإسلام من جذوره، وطى صفحته من كتاب الحياة!!

● ومنذ أن نجح الصليبيون فى غرب أوربا فى إسقاط (غرناطة) ـ آخر معاقل الحضارة الإسلامية فى الأندلس ـ سنة ٨٩٧ هـ سنة ١٤٩٢م بدأت طلائع الغزوة الأوربية الحديثة لعالم الإسلام.. فغرناطة أسقطت فى يناير سنة ١٤٩٢م.. وفى أغسطس من نفس العام، خرجت من أسبانيا أولى حملات الغزوة الغربية الحديثة، بقيادة (كرستوفر كولمبس) (١٤٥١ ـ ١٥٠٦م) قاصدًا جزر الهند الشرقية، ليجمع الذهب الذى يجيش به الحملة الصليبية التى تستعيد القدس

والأرض المقدسة من جديد!.. فلما ضل طريقه، وذهب إلى أمريكا، بدلًا من جزر الهند الشرقية، جمع الذهب، وعاد ليلح على ملكى أسبانيا (فرديناند) (١٤٧٩ ـ ١٥١٦م) و(إيزابيلا) (١٤٧٤ ـ ١٥٠٤م) وعلى البابا (إسكندر السادس) (١٤٩١ ـ ١٥٠٣م) كى يعملوا على تجييش الجيش المكون من خمسين ألفا من الجنود المشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، لتحقيق هذا المقصد الاستعمارى التاريخى.

● لكن الحملة التى حققت حلم (كرستوفر كولمبس) كانت هى التى قادها (فاسكو دى جاما) (١٤٦٩ ـ ١٥٢٤م) والتى خرجت من البرتغال سنة ٩٠٣ هـ سنة ١٤٩٧م ـ أى بعد خمس سنوات من إسقاط (غرناطة) ـ فدارت حول أفريقيا وكانت عيونها على الأقليات لتقيم بواسطتهم نقاط الارتكاز، فتحالفت مع ملكة أثيوبيا (هيلانة) ـ التى تحولت عن الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية ـ للعمل على تحويل مجرى النيل ليصب فى البحر الأحمر، بدلًا من أن يجرى إلى مصر!.. وليصعد الأسطول البرتغالى ـ عبر البحر الأحمر ـ إلى (جدة) (فمكة) و(المدينة المنورة) لهدم الكعبة، وسرقة جثمان الرسول ﷺ للمساومة به على استعادة القدس والأرض المقدسة من جديد!.

ولما فشل هذا المخطط ـ لأسباب مناخية.. ولنقص المؤن ـ اتجهت الحملة البرتغالية إلى شواطئ الهند لمحاربة المسلمين هناك، ولتتخذ من شرقى آسيا ـ بعد أثيوبيا ـ قواعد تنطلق منها الجيوش الاستعمارية ـ إلى الخليج العربى، للاستيلاء على قلب العالم الإسلامى ـ الوطن العربى ـ لإعادة احتلال القدس وفلسطين!!

ولقد كان الشعار الذى رفعته هذه الحملة الصليبية البرتغالية ـ التى

قادها (فاسكودى جاما) ـ هو (التوابل والمسيح)!.. أى المواد الخام، وأسواق التجارة الدولية، وتحويل طرقها بعيدًا عن الوطن العربى.. مع تنصير المسلمين لكسر شوكة المقاومة الإسلامية، واقتلاع جذورها من الأعماق!!

● وفى مواجهة هذه الحملة البرتغالية، خرج الجيش المصرى من ميناء السويس سنة ٩١٠هـ سنة ١٥٠٤م ـ على عهد الملك الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ ١٥٠١ ـ ١٥١٦م) لمحاربة البرتغاليين على شواطئ الهند.. فلما انهزم أسطوله، وأصبح ضعف الدولة المملوكية بمثابة الفراغ الذى يغرى البرتغاليين ـ الذين زحفوا إلى الخليج العربى ـ بابتلاع المشرق العربى ـ زحفت الجيوش العثمانية على الشام ومصر سنة ٩٢٣ هـ سنة ١٥١٧م بقيادة السلطان سليم الأول (٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) فملأت الفراغ العسكرى، وأخرت الغزوة الغربية للوطن العربى عدة قرون.

وكما تحالف الصليبيون البرتغال ـ إبان هذه الحملة ـ مع أثيوبيا ضد الدولة المملوكية، فلقد تحالفوا ـ كذلك ـ مع الدولة الصفوية الشيعية ـ فى إيران ـ ضد الدولة العثمانية، فكان الزحف الصفوى على الحدود الشرقية للدولة العثمانية ـ بقيادة الشاه إسماعيل الصفوى (٩٠٧ ـ ٩٣٠هـ ١٥٠٢ ـ ١٥٦٦م) ـ على عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى (٩٢٦ – ٩٧٣ هـ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) ـ كان سببًا فى انسحاب الجيوش العثمانية من على أسوار (فينا).. ثم تكرر ذلك ـ على عهد الشاه الصفوى نادر شاه (١١٤٨ ـ ١١٦٠هـ ١٧٣٦ ـ ١٧٤٧م) ـ الذى احتل بغداد، فاضطر السلطان العثمانى مراد الرابع (١٠٣٢ ـ ١٠٥٠هـ ١٦٢٢ ـ ١٦٤٠م)

إلى سحب جيوشه من على أسوار (فينا) ـ مرة ثانية ـ كى يحرر بغداد من الاحتلال الصفوى (١٠٤٩ هـ ١٦٣٩م).

● أما على جبهة التنصير، فلقد بدأ تنصير الفلبين لتكون قاعدة للإمبريالية الغربية فى شرقى آسيا.. وتم تحويلها عن الإسلام إلى الكاثوليكية، وتغيير اسم عاصمتها من (أمان الله) إلى (مانيلا)!.. وتم حشر المسلمين كأقلية ـ فى جنوبها، حيث لا يزالون يجاهدون للحفاظ على وجودهم الإسلامى حتى هذه اللحظات!

هكذا بدأت الغزوة الإمبريالية الغربية الحديثة لعالم الإسلام.. وهكذا أصبح التبشير بالمذاهب المسيحية الغربية فى البلاد الإسلامية كتيبة من كتائب الغزو الاستعمارى، تسعى إلى كسر شوكة المقاومة الإسلامية.. فبتنصير المسلمين تتم تبعيتهم الروحية للكنائس الغربية، فيتأيد ويتأبد إلحاق الشرق بالمركزية الحضارية الغربية!.

ومنذ ذلك التاريخ عرف الفكر الدينى فى بلادنا الجدال مع المنصرين، الذين جمعوا كل أشتات الشبهات التى سبق ووجهت إلى الإسلام، وخاضوا بها صراعًا حاميًا ومكرورًا مع علماء الإسلام.

● فلما كان القرن التاسع عشر، الذى شهد ضعف الدولة العثمانية ـ الدولة الإسلامية الجامعة الحامية ـ وفُتحت واتسعت الثغرات الاستعمارية لالتهام ولايات هذه الدولة، زحف التنصير الغربى فى ركاب النفوذ والجيوش الغربية إلى الكثير من أقطار الشرق الإسلامى، فقامت مدارس الإرساليات التبشيرية ـ وخاصة فى لبنان ـ بتخريج كتائب من

المثقفين الذين يبشرون بالعلمانية وبالعاميات وبالمذاهب والفلسفات المادية الغربية التى تهمش الإسلام وتقلص شموله لكل مناحى الحياة.. ولقد حدد القناصل الفرنسيون فى بيروت أهداف هذه المدارس، فقالوا ـ فى مراسلاتهم لوزارة الخارجية الفرنسية ـ فى باريس ـ: (إنها تستهدف جعل الشام حليفًا أكثر أهمية من مستعمرة!.. وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة! وتحويل الموارنة إلى جيش متفان لفرنسا فى كل وقت!.. وجعل البربرية العربية (كذا) ـ تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا)[1]!!

وإلى جانب مدارس الإرساليات هذه ـ والكتب والمجلات التى روجت لفكريتها ـ قامت كنائس المذاهب النصرانية الغربية ركائز للتنصير فى بلاد الإسلام..

ومع تصاعد ضعف الدولة العثمانية ـ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ تصاعدت موجات التنصير متزامنة مع تصاعد الزحف الاستعمارى على ولايات الدولة العثمانية.

وفى هذه الحقبة ظهر ـ فى الشرق ـ أشهر المنصرين الأمريكيين ـ القس (صموئيل زويمر) (١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م) ـ بطل هذه المناظرات التى كتبها العالم المجدد الشيخ عبدالمتعال الصعيدى ـ فى هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه ـ كتاب (لماذا أنا مسلم)؟

(١) من مراسلات القناصل ـ أرشيف الخارجية الفرنسية ـ باريس ـ سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨ ـ ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨م. انظر: محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٧٣ طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت سنة ١٩٩٠م.

لقد رمز شيخنا الجليل ـ فى هذه المناظرات ـ إلى المنصرين بالقس (ز) ـ الذى وصفه ـ فى التقديم لهذا الكتاب ـ بأنه: (من علماء المسيحية الذين درسوا الإسلام دراسة غير بريئة، دراسة لا يراد منها الوصول إلى الحق، والبحث فى الإسلام بحثًا يراعى صاحبه أنه قبل كل شىء مسيحى، وإنما يراد منه تصيد كل ما يشكك المسلم فى دينه، من شُبه متكلفة، واعتراضات بعيدة ولو أنهم كانوا يدرسون الإسلام للوصول إلى رأى صحيح فيه لسهل عليهم أمر تلك الشبه، ولما رضوا أن يتوجهوا بها إلى المسلم ليشككوه فى دينه، فيقابلها بكل ازدراء واحتقار، لهوان أمرها، وحقارة شأنها).

● وإذا كان أسلافنا قد قالوا: (إن اختيار المرء هو قطعة من عقله).. فلقد كان اختيار شيخنا عبدالمتعال الصعيدى للقس زويمر ـ ممثلا للتنصير والمنصرين.. فى مرحلة استعلاء هؤلاء المنصرين تحت حماية الاستعمار ـ من شواهد عبقرية هذا الشيخ الجليل..

● فزويمر هذا هو القائل: (إن تبشير المسلمين يجب أن يكون بلسان رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها)[1]!

● وهو الذى رفع سقف أطماع المنصرين من (التنصير بين المسلمين) إلى (تنصير كل المسلمين)!.. بل إلى (تنصير العالم)!.. فقال: (إن الله لم يقصد أن يقاسم المسيح أحدٌ فى ملكوته) بل قصد أن تكون مملكة المسيح

(١) ألفرد شاتليه (الغارة على العالم الإسلامي) ص ٩٣، ٩٤ تعريب محب الدين الخطيب، مساعد اليافى. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠م.

بلا حدود، وأن تكون حروبه خالية من شروط الحياد عند أية أمة، وهناك مواعيد كتابية بنجاح هذه المشروعات التبشيرية. ولأن العالم الإسلامى ـ الذى يحبه الله ـ لا يزال بعيدًا عن الله، فإن تنصيره هو رأفة من الله به وشفقة منه عليه)![1].

● وزويمر هذا هو الذى بلغ احتقاره للمسلمين ـ ربما فى لحظات يأسه من تنصيرهم ـ حد الدعوة إلى مجرد تشكيكهم فى دينهم، ودفعهم إلى الزندقة والإلحاد والكفر بكل الأديان.. مفضلا كفر المسلم على إيمانه بأى دين، طالما لم ينخرط فى دين زويمر!.. وفى ذلك تحدث إلى أعوانه ـ من كتائب التنصير فى الزحف الاستعمارى الغربى فقال ـ فى مؤتمر القدس التنصيرى سنة ١٣٥٤ هـ سنة ١٩٣٥م ـ: لا إن مهمة التبشير التى ندبتكم لها الدول المسيحية فى البلاد الإسلامية ليست فى إدخال المسلمين المسيحية.

فإن فى هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم هى أن تخرجوا المسلم من الإسلام، عن طريق التعليم ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة له بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها.. لقد أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور فإذا تعلم فللشهرة وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهرة يجود بكل شىء)[2]!

---

(١) صموئيل زويمر (طريق المحبين إلى قلوب المسلمين) ص٩ وما بعدها. طبعة اللجنة التبشيرية للإرسالية الأمريكية ـ القاهرة بدون تاريخ ـ والنقل عن: د. عبدالرازق عبدالرازق عيسى (التنصير الأمريكى فى بلاد الشام) ـ القاهرة ـ مكتبة مدبولى سنة ٢٠٠٥م.

(٢) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة) ص ١٦٢، ١٦٣ ـ الندوة العالمية للشباب الإسلامى ـ الطبعة الثانية ـ الرياض سنة ١٤٠٩ هـ سنة ١٩٨٩م.

ـ وزويمر هذا هو الذى اتخذه المنصرون ـ الذين عقدوا أخطر مؤتمرات التنصير ـ فى كولورادو ـ بأمريكا سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م اتخذوه القدوة والأسوة والنموذج والمثل الأعلى، حتى لقد أطلقوا اسمه على المؤسسة التى تقود منظمات التنصير على النطاق العالمى (معهد صموئيل زويمر) ـ الذى أرادوه (مركز الأعصاب) و(بنتاجون) عالم التنصير!

بل وتوجهوا ـ فى توصيات مؤتمرهم هذا ـ إلى ربهم (أن يرزقهم نماذج من المنصرين مثل صموئيل زويمر الذى أتقن اللغة العربية، وكان عالمًا محترفًا فى الإسلاميات، ومنصرا مقنعا لقد عمل ٢٣ سنة منصرا فى الجزيرة العربية، وستة عشر عامًا مديرًا لمركز الدراسات الإسلامية والمطبوعات فى القاهرة واستطاع فى الوقت نفسه أن يشرف على تحرير أهم مجلة نصرانية عن الإسلام لمدة ٣٦ سنة، وهى مجلة (العالم الإسلامي)[1].

ـ وزويمر هذا هو الذى ألف عشرات الكتب والدراسات التى ملأها بالشبهات التى تحاول أن تشكك المسلمين فى دينهم.. ومنها:

١ ـ (يسوع فى إحياء الغزالي) سنة ١٩١٢م.

٢ ـ (بلاد العرب منذ الإسلام).

٣ ـ (الغواص واللآلئ ـ أو ترجمة الغزالي) ـ مصر سنة ١٩٢١م.

٤ ـ (الإسلام فى العالم) سنة ١٩١١ ـ سنة ١٩١٣م.

٥ ـ (مصنفات المكتبة الإسلامية) سنة ١٩١٢م.

٦ ـ (ترجمات القرآن) سنة ١٩١٥م.

---

(١) (التنصير الأمريكي) ـ خطة لغزو العالم الإسلامى ـ ص٦ ـ وثائق مؤتمر كولورادو ـ طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة سنة ٢٠١١م. وانظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة نهضة مصر ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

٧ ـ (الإسلام فى جنوب أمريكا) سنة ١٩١٦م.

٨ ـ (القرينة) سنة ١٩١٦م.

٩ ـ (أوائل المسلمين فى الصين) سنة ١٩١٨م.

١٠ ـ (أُمية النبي) سنة ١٩٢١م.

١١ ـ (الحديث القدسي) سنة ١٩٢٢م.

١٢ ـ (الإسلام فى الهند) سنة ١٩٢٥م.

١٣ ـ (الإسلام فى أفريقيا) سنة ١٩٢٥م.

١٤ ـ (الإسلام فى جنوب أوروبا) سنة ١٩٢٧م.

١٥ ـ (تنوع الإسلام فى الهند) سنة ١٩٢٧م.

١٦ ـ (حياة محمد لاندراي) سنة ١٩٣٦م.

١٧ ـ (سورة الإخلاص) سنة ١٩٣٦م.

١٨ ـ (إكرام آدم والملائكة) سنة ١٩٣٧م.

١٩ ـ (الإسلام) سنة ١٩٣٨م.

٢٠ ـ (الإسلام فى الصحراء الغربية) سنة ١٩٤٣م.

٢١ ـ (الإسلام فى مدغشقر) سنة ١٩٤٥م.

٢٢ ـ (فرنسيس الأسيزى والإسلام) سنة ١٩٤٩م.

٢٣ ـ (إرث النبى) سنة ١٩٤٨م[1].

---

(١) نجيب العقيقى (المستشرقون) ج٣ ص١٠٠٥ طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٥م.

أى أنه عاش حياته ـ ٨٦ عامًا ـ يحارب الإسلام.. وظل يؤلف الكتب والدراسات ضد الإسلام إلى ما قبل وفاته بثلاث سنوات!!

هذا هو القس (زويمر).. الذى اختاره شيخنا عبدالمتعال الصعيدى ـ فى هذه المناظرات ـ نموذجًا للمنصرين.. وساق على لسانه ـ فى المناظرات العشرين ـ كل حصاد المنصرين من الشبهات التى تفننوا فيها على مر التاريخ!

● أما ردود شيخنا الجليل على هذه الشبهات، فلقد جاءت ـ كما سيجد القارئ لهذا الكتاب ـ إبداعًا فكريًا متميزًا وممتازًا، استخدم فيه العقل والنقل والفطرة وحقائق التاريخ.. وضم إلى العلوم الإسلامية الفقه النقدى لأسفار العهدين القديم والجديد.. كما قدم إشراقات من الاجتهادات الجديدة التى لم يسبقه إليها أحد من علماء الإسلام الذين أبدعوا فى هذا الفن من التأليف على مر تاريخ الحوار والجدال بين المسلمين وأهل الكتاب.

كما التزم شيخنا الجليل ـ فى هذه المناظرات ـ آداب البحث والمناظرة، التى علمنا إياها القرآن الكريم:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١).

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٤).

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤).

رحم الله شيخنا الجليل عبدالمتعال الصعيدى.. ونفع بكتابه هذا (لماذا أنا مسلم؟).. هذا الكتاب الذى بدأ صغير الحجم ـ فى ٣٢ صفحة ـ طبعته المطبعة المحمودية ـ بالقاهرة سنة ١٩٣٤م.

ثم اكتمل وأخذ صورته الحالية، فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٣ يونيو سنة ١٩٣٦م ـ ونشرته مكتبة الآداب ـ بالجماميز ـ فى ١٨٨ صفحة ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م.

ثم صدرت له طبعتان فى سنة ١٩٤٧م وسنة ١٩٥٢م.

وهذه هى طبعته الأولى بعد وفاة المؤلف.. والتى تتميز وتنفرد بالدراسة والتقديم والتعليقات.. ونحن إذ نقدمها للباحثين والقراء ـ من المسلمين وأهل الكتاب ـ نسأل الله ـ عز وجل ـ أن ينفع بها، وأن يجعلها فى ميزان حسنات عالمنا الجليل.. المجدد المجاهد الشيخ عبدالمتعال الصعيدى.. أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

الأستاذ الدكتور

محمد عمارة

لماذا أنا مسلم؟

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٤٤).

ويسلم له وجهه، فإذا قال المسلم: أسلمت وجهى لله وحده. شاركته فى ذلك الكواكب فى أفلاكها، والمياه فى بحورها، والزروع فى حقولها، والأزهار فى رياضها، والطيور فى تغريدها، وكل شىء فى السماوات والأرض، من جماد ونبات، وحيوان وإنسان:

ولله فى كل تحريكة وتسكينة فى الورى شاهدُ
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحدُ

وهى فى هذا التسبيح لله وحده لا تعرف شيئًا من خلقه، وإن علا قدره، ولا تشرك معه أحدًا من ملائكته ورسله، بل تجهل فى هذا عيسى كلمته، وإبراهيم خليله، وموسى كليمه، ومحمدًا خاتم أنبيائه ورسله.

فإذا أشرك بعض الناس مع الله فى هذا التسبيح غيره، مثل برهما أو عيسى عليه السلام، أو غيرهما من خلقه، أبت عليه ذلك السماوات وما فيها من شموس ونجوم وأقمار، وأبته الأرض وما فيها من جبال راسيات، وبحار زاخرات، وأنهار جاريات، ورياح مسخرات، وأشجار

مثمرات وغير مثمرات، فكل ذلك وغيره يسبح بحمد الله وحده، ولا يعرف فى تسبيحه أحدا غيره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (الحديد: ١، ٦).

المتناظران

القس (ز) من علماء المسيحية الذين درسوا الإسلام دراسة غير بريئة دراسة لا يراد منها الوصول إلى الحق، والبحث فى الإسلام بحثًا لا يراعى صاحبه أنه قبل كل شىء مسيحى، وإنما يراد منها تصيد كل ما يشكك المسلم فى دينه، من شُبه متكلفة، واعتراضات بعيدة، ولو أنهم كانوا يدرسون الإسلام للوصول إلى رأى صحيح فيه لسهل عليهم أمر تلك الشُّبه، ولما رضوا أن يتوجهوا بها إلى المسلم ليشككوه فى دينه، فيقابلها بكل ازدراء واحتقار، لهوان أمرها، وحقارة شأنها.

ومحمد مختار ابن عين من أعيان القاهرة، رباه والده فى طفولته تربية دينية، حفظ فيها القرآن الكريم، وعرف عقائد دينه معرفة صحيحة، وتأدب بآدابه الحسنة، وتخلق بأخلاقه الفاضلة، ثم ألحقه فى العاشرة من عمره بالمدارس الابتدائية الأميرية، فسار فيها بجد ونشاط، حتى صار أول الناجحين فى كل سنة من إخوانه، ولما أتم تعليمه الابتدائى ألحقه أبوه بالمدارس الثانوية الأميرية، فسار فيها سيرته فى المدارس الابتدائية، حتى أحبه أبوه محبة عظيمة، وجعله موضع رعايته وعنايته، وكان كل سنة يأخذه معه إلى مدينة الإسكندرية، ليقضى فيها أجازته الصيفية،

ويروح عن نفسه عناء الدرس طول السنة، فلما كان صيف سنة ١٣٤٥هـ ١٩٢٦م بادر أبوه قبله إلى مدينة الإسكندرية، وتركه ليؤدى امتحانه ثم يلحقه إليها.

فلما أدى محمد امتحانه يمم وجهه شطر مدينة الإسكندرية وركب القطار الذى يقوم صباحًا من القاهرة إليها، فجاء جلوسه فى القطار بجانب القس (ز) وكان يقصد مدينة الإسكندرية فى ذلك اليوم، لأمر يتعلق بوظيفته فى التبشير بدينه المسيحى، وهذا القس وإخوانه المبشرون بالنصرانية قد وهبوا حياتهم للتبشير بدينهم، فلا يتركون فرصة تسنح لهم إلا انتهزوها، ولا ينسون أمره فى الإقامة والسفر، وهم ينبثون لأجله فى المدن والقرى، وفى الدور والشوارع، وفى الأندية الخاصة والعامة، لا يكلون ولا يملون، ولا يبالون بما يصادفهم فيه من مشقات وصعوبات، وإذا كانوا لا يصادفون مع هذا نجاحا فى البلاد الإسلامية، فإن هذا لا يرجع إلى تقصير منهم، وإنما يرجع إلى قوة العقيدة الإسلامية، تلك العقيدة التى لو وجدت لها مبشرين فى نشاط هؤلاء المبشرين بالمسيحية لما بقى على ظهر الأرض شخص غير مسلم، وقد انتشر الإسلام فى ربع قرن بعد ظهوره، حتى شمل معظم أنحاء الأرض من غير وسائل منظمة فى الدعوة إليه، مثل تلك الوسائل المنظمة التى يلجأ إليها أولئك المبشرون المسيحيون، فكيف يكون الحال الآن إذا وجد الإسلام مثل هذه الوسائل، واتخذت للتبشير به مثل هذه الطرق، وأنفق فى الدعوة إليه مثل تلك الأموال التى لا تحصى ولا تعد؟

فما إن جلس محمد بجانب ذلك القس الداهية حتى طمع فيه، وخدعه زيه الفرنجى، وظن فيه أنه لا يعرف شيئًا من أمور دينه، وقدر لنفسه

سفرًا سعيدًا بجانب شاب صغير يجد المجال أمامه واسعًا للتأثير فيه، وتشكيكه فى دينه.

● فالتفت القس إلى محمد وقال له: مرحبًا بالأفندى.

●● فقال له محمد: مرحبًا بك يا مستر.

● فقال له القس: لستُ بمستر، وإنما أنا القس (ز) المبشر المسيحى بالديار المصرية. ثم سأله عن اسمه؟

●● فقال له: اسمى محمد.

● القس: إذن أنت مسلم.

●● محمد: نعم أنا مسلم.

● القس: هل تحفظ شيئًا من قرآنكم الذى أنزل على محمد نبيكم؟

●● محمد: نعم أحفظه كله.

● فدهش القس أيما دهش؛ لأنه لم يعهد فى مثل محمد ـ فتانا ـ أن يعنى بحفظ القرآن، ثم قال له: إنا معشر النصارى قد مدحنا فى قرآنكم إذ قال فى سورة المائدة: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (المائدة: ٨٢، ٨٥).

● ● محمد: نعم أيها القس، فى هذا مدح للنصارى وتفضيل لهم على اليهود، وإنما كان النصارى فى الإجمال أقرب مودة للمسلمين من اليهود؛ لأن النصارى يدينون بدين تجتمع فيه شعوب كثيرة، من روم وقبط وأحباش وغيرهم، أما اليهود فدينهم خاص بهم، فهم يتعصبون له من الجهة الدينية، ومن الجهة القومية، ويعتقدون فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار، وينظرون إلى غيرهم من الشعوب بعين البغض والاحتقار، ويرون أن دينهم مفخرة لهم آثرهم الله بها على غيرهم من الشعوب، ولهذا يؤثرون العزلة عن غيرهم، ولا يعنون بدعوة أحد إلى دينهم، ولا يزال هذا شأنهم إلى عصرنا الحاضر، وقد كان لذلك أثره فى انتشار الإسلام فى بلاد النصرانية، وإقبال جمهور تلك البلاد عليه، حتى صار الدين الغالب فيها، كما كان له أثره فى نفور اليهود من الإسلام، وتفضيلهم أن ينفوا من بلاد العرب على أن يؤمنوا به، ولم يسىء المسلمون إليهم بنفيهم من بلادهم، وإنما أعادوهم إلى مواطنهم الأولى بالشام، وكانت محرمة عليهم من يوم أن أخرجهم الروم منها، وأزالوا دولتهم فيها.

● القس: ولكنى أرى قرآنكم قد مدح النصارى فى هذه الآيات، ثم ذمهم فى آيات أخرى، ومن ذلك قوله فى هذه السورة نفسها، وقبل الآيات السابقة بآيات قليلة: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ

إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٧٢، ٧٣).

فكيف يمدح قرآنكم النصارى ويذمهم فى سورة واحدة؟

وفى آيات متقاربة، وهو يقول فى سورة النساء: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

●● محمد: اسمع أيها القس الفاضل، إذا كنت تريد جدالى فى دينى، فإن الجدال فيه بهذا الشكل الذى تريده لا يفيد، لأنه جدال لا يراد منه إلا إثارة الشك فى الدين، ولا يراد منه الوصول إلى الحق فيه، والواجب فى الجدال أن يكون الغرض منه الوصول إلى الحق، لا إثارة الشك فى النفس.

● القس: وكيف يكون الجدال فى الدين لغرض الوصول إلى الحق؟

●● محمد: يكون الجدال فى الدين لغرض الوصول إلى الحق فى شأنه بالبحث أولا فى أصوله المتفق عليها بين أهله، فإذا بحثت هذه الأصول وعرفت صحتها أو فسادها سهل أمر ماعداها من الفروع، لأنه إذا كانت الأصول فاسدة لم يكن هناك حاجة إلى البحث فى فروعها، إذ لا يمكن أن تصح الفروع مع فساد الأصول، وإذا كانت الأصول صحيحة أمكن بحث فروعها بعد ذلك، وقد زال من النفس تعصبها، وسهل أمر الشبه التى تحدث فيها، وكل أمر ولو كان حقًا لا يخلو من اشتباه بعض العقول فيه، ولا يمكن أن يؤثر هذا الاشتباه فى صحته، ولكنكم أيها المبشرون المسيحيون لا تحبون أن تأتوا البيوت من أبوابها، وإنما تحبون أن تتصيدوا أمثال تلك الشبهة الواهية فى توهم الخلاف بين تلك الآيات، ولا تكلفون أنفسكم البحث فى أصول الإسلام لمعرفة حقيقته، ولو أنكم سلكتم هذا

الطريق لعرفتم أن هذا الدين أحق بنصركم وتأييدكم له، ولاتقيتم الله فى هذه الجهود التى تبذلونها فى محاربته.

ثم قال له محمد: أما تلك الآيات فلا خلاف بينها، لأن القرآن الكريم حينما ذكر أن النصارى أقرب مودة للمسلمين من اليهود والمشركين لم يكن يتكلم فى هذا عن عقائدهم، وإنما أراد أن يبين شأنًا من الشئون التى يرجع التأثير فيها إلى الطبائع لا إلى العقائد. وهو مع هذا إنما يريد اليهود فى الإجمال، كما يريد النصارى فى الإجمال، وقد يكون من اليهود من هو أقرب مودة للمسلمين من بعض النصارى، كما يكون من النصارى من هو أشد عداوة للمسلمين من بعض اليهود، وأما القسيسون والرهبان الذين مدحوا فى هذه الآيات فهم قسيسون ورهبان أسلموا وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، فمدحوا كما تنطق هذه الآيات على إسلامهم الجديد، لاعلى نصرانيتهم القديمة.

● القس: إنك أيها الفتى تجادل عن دينك بحكمة، ولا يحملك تعصبك له على الخروج عن حد الإنصاف، وأنت بهذا تخدمه أكثر ممن يغالى فى التعصب له إذا جودل فى شىء منه، فيشتم ويحتد فى جداله، ولا يطيق أن يسمع نقاشا فى دينه، حتى لكأنه يريد أن يفرضه على الناس فرضًا، ولا يريد أن يقنعهم به إقناعا.

●● محمد: إن قرآننا الكريم قد علمنا أدب الجدال فى الدين، وأمرنا أن نأخذ من يجادلنا فيه باللين، ونعامله بالحسنى، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ثم قال له: لعلك أيها القس الفاضل توافقنى على أن البحث فى أصول الأديان هو طريق الوصول إلى الحق فيها، وأن طريقتكم فى تصيد الشبه هنا وهناك لاتوصل إلى حق، ولا تهدى إلى صواب، وإنما هى طريقة مضللة، لا يراد منها إلا وضع الأشواك فى طريق الوصول إلى الحق، وتعميته على الناس بإثارة الشبه حوله.

● القس: يامحمد، إنه لا يسعنى بعد هذا إلا موافقتك على ما ذكرت، ولكنى أراكم قد ضيعتم أكثر فروع دينكم، وتركتم العمل بها فى أمور دنياكم إلى تلك القوانين الوضعية، ومع هذا أراكم تصرون على أصول إسلامكم إصرارا عظيما، وتتعصبون لها تعصبًا عجيبًا.

فقل لى يا محمد: لماذا أنت مسلم؟ وقد هان عليكم أمر الإسلام هذا الهوان، وتساهلتم فى العمل بفروعه هذا التساهل.

●● محمد: نعم أيها القس الفاضل، سأبين لك: لماذا أنا مسلم؟ ولماذا نُصر على إسلامنا بعد أن فرطنا فى العمل بفروعه هذا التفريط؟ وأبين لك قوة الأصول الإسلامية التى تجعل المسلمين يصرون عليها هذا الإصرار العجيب، مع تفريطهم فى العمل بفروعها، وتساهلهم فى أمر هذه الفروع ذلك التساهل.

وكان القطار قد وصل مدينة الإسكندرية، فاتفقا على أن يقوما بمناظرات فى ذلك، يدعى إليها الناس فى دار المبشرين المسيحيين بمدينة الإسكندرية.

ثم نزلا من القطار وودع كل منهما صاحبه، بعد أن اتفقا على الزمان والمكان الذى تقام فيه المناظرات، وقصد محمد إلى الترام الذى يوصله إلى

مصيف أبيه برمل الإسكندرية، فلما وصل إليه سأله عما فعل فى امتحانه، فأخبره بأنه أجاب عن أسئلته أحسن إجابة، فسر أبوه سرورًا عظيما، ودعا له بالنجاح والفلاح، ثم أخبره محمد بما جرى له فى القطار مع ذلك القس، فزاد سروره به، وشجعه على القيام بتلك المناظرات، ليكون من المجاهدين فى سبيل الله تعالى، وينال بهذا رضا الله فى الدنيا والآخرة.

المناظرة الأولى

قضى محمد مع أبيه أياما يتمتع بهواء رمل الإسكندرية العليل، ويقصد فى أصيل كل يوم إلى البحر، فيمشى على ساحله مأخوذا بذلك الجمال الساحر، وتلك الطبيعة الفاتنة التى حبا الله بها تلك المدينة.

ثم جاءته قبل الميعاد المتفق عليه بيوم دعوة من دار المبشرين المسيحيين بمدينة الإسكندرية، فلما جاء الميعاد ذهب إلى تلك الدار ومعه أبوه وإخوته وبعض أقاربه، وكثير من مسلمى مدينة الإسكندرية، فوجدوا فى تلك الدار حجرة واسعة أعدت لمثل هذه المناظرة، ووجدوا فيها كراسى مصفوفة، فأخذوا أماكنهم منها، وقابل محمد القس (ز) فسلم عليه، وأخذ كل منهما يحدث صاحبه عما جرى له بعد أن فارقه.

ولما جاء الوقت المحدد لبدء المناظرة صعد محمد والقس إلى المكان المعد لهما، فاتجهت إليهما الأنظار، واشرأبت إليهما الأعناق، وكانت الحجرة قد ازدحمت بمن فيها، لأن خبر هذه المناظرة كان قد انتشر فى هذه المدينة، فجاء كثير من أهلها لسماعها.

● فقال محمد: سألتنى أيها القس الفاضل: لماذا أنا مسلم؟ مع أنا

تهاونا فى ديننا ذلك التهاون، وعجبت لإصرارنا على أصول الإسلام بعد تساهلنا فى فروعه، وقلت لك: إن هذا يرجع إلى قوة هذه الأصول، وقوتها ترجع إلى ملاءمتها للفطرة الإنسانية بحيث لا يمكنها النزوع عنها، فالآن أبين لك أصول الإسلام التى تضمن له الخلود إلى ما شاء الله، وتكفل له الظهور والقوة ولو أصاب أهله من الضعف أضعاف ما يصيبهم الآن، فهم يعتزون فى ضعفهم بقوة دينهم، ويرجون عليه من الله فى الآخرة مالا يرجوه غيرهم، وأما هذه الدنيا فدول، يوم لهم ويوم عليهم، وما يصيبهم ضعف فيها إلا ومنشؤه عدم عملهم بهذا الدين، فالذنب فى ذلك عليهم لا عليه.

وهذه الأصول تنقسم إلى قسمين: أصول اعتقادية وأصول تشريعية، والأصول الاعتقادية فى الإسلام ترجع إلى أصلين عظيمين هما أساس كل الأصول الاعتقادية فيه:

الأصل الأول ـ التوحيد

فالله تعالى فى نظر الإسلام واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك له فيها، ولا ولد ولا والد، ولا واسطة بينه وبين عباده من أحبار وكهان، وقسيسين ورهبان، وهذا هو التوحيد الخالص الذى يرفع من شأن كل مسلم، ولا يجعل فى الإسلام هيئات كهنوتية تتحكم فى عقائد المسلمين، كتلك الهيئات الكهنوتية التى توجد فى اليهودية والنصرانية، ويقدسها أهل الديانتين تقديسهم لله تعالى، وقد غالى كل من اليهود والنصارى فى تقديس أنبيائهم ورؤساء دينهم، حتى ذهب جمهور النصارى إلى أن المسيح ابن الله والى أن الله ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) وذهبت

طائفة من اليهود إلى أن عزيرا ابن الله، ولكن جمهورهم لم يقع فى هذا الشرك الذى وقع فيه جمهور النصارى، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا كله فى سورة التوبة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠، ٣١).

وقد ثبت الآن بعد تقدم دراسة علم الأديان أن هذه العقائد لم تدخل هاتين الديانتين السماويتين إلا من العقائد الوثنية القديمة فى بلاد الهند والروم ومصر[1]؛ وهذا هو ما صرح به القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرنا، وهو من أكبر الدلائل على أنه من عند الله تعالى، وليس من عند هذا النبى الأمى الذى لم يدرس أديان البشر، وكانت معارف أمته لا تصل به إلى مثل هذا القول: ﴿ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ (التوبة: ٣٠).

وإن المسلم ليقف بهذه العقيدة الخالصة فى التوحيد عزيز الجانب، مرفوع الرأس، ناهض الحجة، مع الملحد الذى لا يقر بوجود إله، ومع الوثنى الذى يعبد الأصنام والأوثان، ومع الكتابى الذى تأثر فى عقيدته السماوية ببعض العقائد الوثنية، فإذا وقف المسلم مع الملحد أفحمه بهذا

(١) أنظر كتاب العقائد الوثنية فى الديانة المسيحية ـ لمؤلفه محمد طاهر التنير (١٣٥٢هـ ١٩٣٣م) طبعة مصر ١٩١١م. وله طبعة جديدة ـ تحقيق وتقديم د. أحمد السايح، والمستشار توفيق على وهبه ـ مكتبة النافذة ـ القاهرة ٢٠٠٥م.

الكون العجيب، وبما فيه من هذا النظام المحكم، لأن هذا لا يمكن أن ينشأ عن المصادفة العمياء كما يزعم الملحدون، فإذا لم يكف هذا فى إفحامه أفحمه بأن اعتقاده بوجود إله ينفعه إذا صح اعتقاده، ولا يضره على تقدير خطئه فيه، أما الملحد فإن عدم اعتقاده بوجود إله يضره إذا لم يصح اعتقاده، ويعرضه لغضبه وحرمانه من ثوابه، فيكون الاعتقاد بوجود إله أسلم لصاحبه، وأحمد عاقبة له، فيجب إيثاره على غيره.

أما النصرانى فإنه إذا وقف مع الملحد لم يمكنه أن يقنعه بعقيدة التثليث، ولا بأن المسيح ابن الله، لأنه كان من البشر يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وقد ولد من أمه وخرج من رحمها مثلهم، وهذه العقيدة عند النصارى فوق متناول العقول، لما فيها من هذا التناقض، فلا تؤخذ عندهم بالإقناع والدليل، وإنما تؤخذ بالخضوع والتسليم، ومثل هذا لا ينفع عند الملحد بشىء، لأنه لا يؤمن إلا بالعقل، ولا يخضع إلا للدليل.

وإذا وقف المسلم مع النصرانى الذى يقول بالتثليث أفحمه بالتحاكم إلى شرائع الله القديمة، وما أنزل فيها على أنبيائه من آدم أبى البشر، إلى عيسى عليه السلام، وهذه التوراة التى بأيدى اليهود لا يأبى المسلم أن يتحاكم مع النصرانى فى هذا إليها، ولا يمكن النصرانى أن يفر من حكمها، لأنه يؤمن بها كما يؤمن بإنجيله.

● القس: وكيف يرضى المسلم بالتحاكم إلى التوراة وهو يعتقد أنها محرفة؟

●● محمد: إذا كان المسلم يعتقد أن التوراة قد حرفت، فإنه ليس معنى هذا أن كل شىء فيها محرف، فإن عقيدة التوحيد لا تزال سليمة

فيها، وكذلك أمور كثيرة غيرها، والإسلام لا يمنع من الرجوع إلى أهل الكتاب فيما يفيد فيه الرجوع إليهم، وقد ورد فى هذا آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ (يونس: ٩٤).

فنحن إذن نرضى أن نتحاكم نحن والنصارى إلى اليهود فى عقيدة التوحيد، واليهود أقدم أهل الديانات السماوية الباقية (اليهودية والنصرانية والإسلام) ولا شك أنا إذا تحاكمنا إليهم فى ذلك كان حكمهم لنا على النصارى، لأنهم يتفقون معنا فى عقيدة التوحيد، وينكرون البنوة والتثليث.

●● القس: إن اليهود إذا كانوا ينكرون عقيدة التثليث فهم يقولون بالبنوة، وقد ذكر قرآنكم فيما سبق أنهم يقولون عن عزير إنه ابن الله، ومن يقول بالبنوة يلزمه أن يقول بالتثليث.

● محمد: إن جمهور اليهود لا يقولون إن عزيرا ابن الله، وإنما كان يقول بهذا طائفة مجهولة منكورة، قد ذكر اسمها ابن حزم[1] فى كتابه فى الملل والنحل، ولم يخل دين من وجود طائفة شاذة فيها، وقد وجد فى الإسلام من يعتقد فى على بن أبى طالب رضى الله عنه مثل اعتقاد تلك الطائفة اليهودية فى عزير، ومثل اعتقاد النصارى فى المسيح، ولا يصح أن يؤخذ

(١) ابن حزم الأندلسى، أبومحمد، على بن أحمد بن سعيد بن حزم (٣٨٤- ٤٥٦هـ ٩٩٤- ١٠٦٤م) عالم موسوعى، وفيلسوف، متكلم، وأبرز فقهاء المذهب الظاهرى. ومن أشهر مصنفاته: (المحلي) و(الملل والنحل) و(الالتباس فيما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس).

فى دين من الأديان باعتقاد هذه الطوائف الشاذة، وإنما يؤخذ فيه بما عليه جمهور أهله، على أنه يجوز أن يكون اعتقاد تلك الطائفة فى بنوة عزير لله مثل اعتقاد سائر اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه.

كما حكى الله هذا عنهم وعن النصارى فى سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ١٨).

فهى بنوة محبة، وليست بنوة حقيقية تقتضى فى الابن صفة الألوهية.

● ● القس: إذن يا محمد تكون عقيدتكم فى التوحيد مثل عقيدة اليهود، فأى فضل لكم عليهم فيها؟ وأى معنى لدينكم مع دينهم إذا كنتم تتفقون فى ذلك معهم؟

● محمد: نحن إذا اتفقنا مع اليهود فى هذا الأصل فإنا نخالفهم فى أصول أخرى، ولا نتفق معهم فى فروع كثيرة، ومن ذلك أنهم يكذبون نبيكم عيسى عليه السلام، ويعتقدون فيه اعتقادات شنيعة، وكذلك يعتقدون فى أمه مريم عليها السلام، ونحن نصدقه، ونؤمن برسالته، وننزهه عن تلك الاعتقادات الشنيعة، وننزه أمه مريم عنها، ونكفر اليهود بها، وأنتم لا تحفظون لنا هذا الجميل. وتكافئوننا عليه بمحاربة ديننا، حتى إنه لينال من حربكم مالا تناله تلك اليهودية منكم.

وهنا كان الحاضرون قد طالت عليهم هذه المناظرة، فطلبوا من

المتناظرين أن يكتفيا هذا اليوم بهذا القدر من المناظرة، ثم يعودا إليها غدا، فى الوقت الذى بدئت فيه هذه المناظرة.

فأجابهم المتناظران إلى ما طلبوا، وانصرفوا جميعا على أن يعودوا إلى المناظرة الثانية غدًا

المناظرة الثانية

جاء ميعاد المناظرة الثانية، وذهب محمد وأصحابه إلى دار المبشرين، فوجدوا الحجرة قد ازدحمت بالجالسين فيها، وكلهم يرتقب حضوره لسماع هذه المناظرة الخطيرة، وقد أخذهم فى الأمس بهدوئه وحسن تفكيره، وسحرهم بأدبه وقوة منطقه، ثم صعد هو والقس إلى المكان المعد لهما، وكانا قد انتهيا فى المناظرة الأولى من الكلام على الأصل الأول من أصول الإسلام، فأخذا يتناظران فى الأصل الثانى منها.

الأصل الثاني ـ التصديق بجميع الرسل

وقد ابتدأ محمد المناظرة بالكلام على هذا الأصل الثانى من أصول الإسلام، وهو التصديق بجميع الرسل.

● محمد: إن هذا الأصل يدخل فيه التصديق بجميع ما جاء الرسل به من الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة واليوم الآخر، وغير هذا من أصول الإيمان وفروعه، وقد أنصف الإسلام فى هذا سائر الأمم، وجاء فى القرآن الكريم أن الله لم يترك أمة إلا وأرسل إليها رسولا منها، فقال

فى سورة فاطر: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ (فاطر: ٢٤).

أما اليهودية والنصرانية فلا تنصفان هذه الأمم، وتريان أن وظيفة الرسالة كانت وقفا على بنى إسرائيل، وكان لهذا أثره فى سماحة الإسلام، وحسن معاملته لهذه الشعوب، كما كان له أثره فى سوء معاملة اليهودية والنصرانية للشعوب المخالفة لهما، لأنهما لا تريان الشعوب سواء عند الله تعالى كما يراها الإسلام، وقد جاء هذا فى قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣).

●● القس: إن الإسلام يوافق اليهودية والنصرانية فى تفضيل شعب بنى إسرائيل على سائر الشعوب، وقد ورد هذا فى قرآنكم فى سورة آل عمران: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣٣، ٣٤).

● محمد: إن القرآن لا يعنى من هذا إلا تفضيل الأنبياء والرسل من ذرية آدم ونوح وإبراهيم وعمران على غيرهم، ولا يعنى منه تفضيل شعب على شعب، لأن الشعوب لا تتفاضل فى الإسلام إلا بالتقوى والعمل، وقد فضل الله المسلمين على غيرهم فلم يفضلهم لأمر يرجع إلى مزايا جنسية أو بشرية، وإنما فضلهم على غيرهم من تلك الجهة التى جعلها مقياس التفاضل بين الشعوب، فقال فى سورة آل عمران: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ثم قال: إن الناس يتجاذبهم الآن ثلاثة أديان سماوية (الإسلام والمسيحية واليهودية) والخصومات والحروب القائمة الآن بينهم ترجع فى الحقيقة إلى هذا التنازع، ولو أنه حصل بينهم اتفاق على دين من هذه الأديان لبطلت فيه تلك الخصومات والحروب، ولا شك أن الإسلام أصلح هذه الأديان لتحقيق هذه الغاية التى يسعى إليها أنصار السلام فى عصرنا، وقد سبقهم إلى الدعوة إلى هذه الغاية فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

وإنما كان الإسلام أصلح هذه الأديان لتحقيق هذه الغاية، لأنه ينظر إلى الشعوب البشرية تلك النظرة السابقة، ويؤمن بموسى عليه السلام وهو رسول اليهودية، ويؤمن بعيسى عليه السلام وهو رسول النصرانية، ويؤمن بغيرهما من رسلهم، فإذا دخل فيه اليهود والنصارى وجدوه يلتقى معهم فى التصديق برسلهم، ويقابلهم فى نصف الطريق كما يقولون.

أما اليهودية فيدين أهلها بتكذيب عيسى ومحمد عليهما السلام، فلا يمكن أن يدخل النصارى والمسلمون مع هذا فى ملتهم، لبعد مسافة الخلف فى هذا بينها وبينهم.

وأما النصارى فيدينون بتكذيب محمد ﷺ فلا يمكن أن يدخل المسلمون مع هذا فى دينهم.

وقد غلا اليهود والنصارى فى شأن عيسى عليه السلام، فقال اليهود إنه ابن زنا، وقال النصارى إنه ابن الله تعالى، أما المسلمون فيقولون إنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم عليها السلام، وهو عبدالله كسائر عباده، ورسول له كسائر رسله، وولادته من غير أب كخلق آدم عليه السلام من تراب، كما قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

ولا شك أن ما يقوله المسلمون فى شأن عيسى هو ما يمكن أن تجتمع عليه كلمة الأديان الثلاثة، لأنه وسط بين غلو اليهود فى التعصب عليه، وغلو النصارى فى التعصب له.

وقد ذكر بعض المبشرين المسيحيين فى رسالة صغيرة أن بنوة المسيح لله بنوة محبة، وهذه البنوة لا ينازع فيها الإسلام، ولا ينكر أن يكون المسيح ابن الله بمعنى حبيبه، وقد جاء فى القرآن الكريم كثير من هذه الألفاظ المتشابهة، فأولها المسلمون بسهولة على ما يوافق فى العقل كمال الله تعالى، مثل قوله تعالى فى سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥).

فإذا وافق النصارى على ذلك التأويل فى بنوة المسيح لله دخلت المسألة فى طور جديد، وأمكن الاتفاق بيننا وبينهم فيها.

●● القس: هل إذا قلنا أيها الفتى بهذا التأويل فى بنوة المسيح لله، وذهبنا إلى أنها بنوة محبة، تدخلون معنا فى دين النصرانية؟

● محمد: بل يجب عليكم أيها القس الفاضل إذا ذهبتم إلى هذا التأويل فى بنوة المسيح لله أن تدخلوا أنتم فى دين الإسلام، لأنه يكون رجوعًا منكم إلى ما ذهب إليه الإسلام فى شأنه قبل هذا التأويل الجديد، ولأنه إذا

كان المسيح ليس إلا حبيب الله، فإنه يكون مثل إبراهيم خليل الله، ومثل موسى كليم الله، وتبطل بذلك عقيدة التثليث (الأب والابن وروح القدس) إذ لا يكون هناك فى الحقيقة أب ولا ابن، وعقيدة التثليث هى أهم عقائد النصرانية، فإذا بطلت لم يبق من عقائدها ما يستحق أن يكون دينا متميزا عن غيره من الأديان.

ثم إن الإسلام لا يكلف اليهود والنصارى بعد الاعتراف بالله الذى يعترفون به إلا أن يعترفوا برسالة محمد ﷺ وهو لا يكلفهم بذلك شططًا، ولا يطلب منهم شيئًا تأباه عقولهم، أو يضرهم فى أخراهم وإنه ليكفى فى إثبات رسالته سيرته الصالحة، بقطع النظر عن المعجزات التى أيد بها كما أيد غيره من الرسل، ولو أنصف اليهود والنصارى لآمنوا بمحمد نبى المسلمين، كما يؤمن المسلمون بموسى نبى اليهود، وبعيسى نبى النصارى، ولو أنهم فعلوا هذا لتغير شكل العالم فى لحظة واحدة، وصار الناس فيه إخوانًا يسود بينهم السلام والوئام، وتبطل بينهم الحروب والخصومات.

ولا شك أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لاتفاق الشعوب، لأنه لا يمكن أن يكون بينهم اتفاق صادق مع اختلافهم فى الديانات، ومع اعتقاد أهل كل دين أنهم هم الناجون فى الآخرة، وأن غيرهم لا نجاة لهم من عذابها، فإذا اجتمعوا فى دين واحد زالت هذه العقبة التى تحول دون اتفاقهم.

●● القس: قد نذهب يا محمد إلى ذلك التأويل فى بنوة المسيح، ولكنكم تنكرون صلب اليهود له، وهو أمر قد ثبت عندنا بالتواتر، وليس الصلب مسألة دينية لا غير، وإنما هو مسألة دينية وتاريخية، وقد ذكرت حادثة

الصلب فى كتب المؤرخين المعاصرين لها، وعقيدة الصلب من العقائد المهمة فى النصرانية.

● محمد: إنكم تجعلون من صلب المسيح عقيدة دينية، وتقولون إنه قدم نفسه إلى الصلب ليفدى البشر من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام، وهى الخطيئة التى أخرج بها من الجنة ولا شك أن ما حصل من آدم عليه السلام لا يستحق كل هذا الاهتمام منكم، وأنه إذا أخطأ آدم فإن أبناءه لا يصح أن يكونوا مخطئين بخطيئته، إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا علاقة لصلب المسيح بهذه الخطيئة حتى يكون فداء لها، والنصارى يعرفون مثل هذا فى عقيدة الصلب، وهى عندهم مثل عقيدة التثليث تؤخذ بالتسليم؛ لأنها من مسائل الإيمان الذى لا يفيد فيه نظر العقل، ومثل هذا لا يرضى به الناس فى عصرنا الحاضر.

وهذه قيمة عقيدة الصلب من الجهة الدينية فى نظر الإسلام، وأما قيمتها من الجهة التاريخية فإن الإسلام لا ينكر أن صلبا وقع، وإنما ينكر أن الذى صلب هو المسيح عليه السلام، ويذهب إلى أن الذى صلب شخص آخر ألقى عليه شبهه، وهو يهوذا الأسخريوطى الذى دلهم عليه، وقد ثبت موته فى الليلة التى يقال إن المسيح صلب فيها، فلم يكن المصلوب فيها إلا يهوذا بعد أن ألقى عليه شبه، فصلبوه وهم يعتقدون أنهم صلبوا المسيح نفسه، وقد تم هذا بمعجزة من المعجزات الإلهية التى يوجد فيها ما هو أعظم من هذه المعجزة، وقد أخبر بهذا رسول من رسل الله تعالى، وهو محمد ﷺ ورسل الله أدرى بهذه الشئون منا، وإذا أخبروا بشىء من أمر الغيب فإنه ليس لأحد أن يجادل فيه، أو يقول إنه وقع أو لم

يقع، والله تعالى هو الذى ألقى شبه المسيح على يهوذا دون أن يطلع أحدا عليه، فكيف يتأتى لغير رسول من رسله أن يجزم بشىء فيه؟

ويمكننا أن نقول بعد هذا إن صلب المسيح ليس إلا مسألة من مسائل التاريخ، وأن نقول إن التاريخ لا يهمه منها إلا أن يثبت أن صلبا وقع فى هذه الليلة، ولا يعنيه بعد هذا أن يكون المصلوب فيها هو المسيح عليه السلام، أو شخصًا آخر ألقى عليه شبهه، لأن هذا أمر يخرج عن موضوع بحثه.

وهنا شاهد محمد من المستمعين ميلا إلى الوقوف فى هذا اليوم عند هذا الحد من المناظرة، فأعلن انتهاء هذه الجلسة، على أن يعودوا غدا فى مثل موعدهم إلى سماع المناظرة الثالثة.

المناظرة الثالثة

عاد محمد فى الغد إلى دار المبشرين المسيحيين، ومعه أبوه وإخوته، وجميع أصدقائه، فقصد إلى حجرة المناظرة، وأخذ مكانه فيها مع القس (ز) ثم أخذا يتناظران فى الأصل الثالث من أصول الإسلام.

الأصل الثالث ـ جلب المصلحة ودفع المفسدة

● محمد: إن الأصلين السابقين هما الأصلان الاعتقاديان فى الإسلام، وعليهما تقوم سائر الأصول الاعتقادية، أما أصوله التشريعية فإنها ترجع إلى أصل واحد يقوم عليه سائرها، وهو جلب المصلحة ودفع المفسدة، وهو أصل جليل لا يمكن أن يجادل فيه أحد من الخلق، وللإنسان مصلحة دنيوية ومصلحة أخروية، كما أن له مصلحة خاصة، ومصلحة عامة: وقد راعى الإسلام كل هذه المصالح، وأعطى كل مصلحة حظها من العناية، ومن النصوص الإسلامية الواردة فى هذا الأصل قوله ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار) «سنن ابن ماجة ومسند أحمد وموطأ مالك» وقوله تعالى فى سورة القصص: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

ومنها فى ذم من يؤثر مصلحته الخاصة على المصلحة العامة قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٥٨، ٦٠).

●● القس: إن الإسلام لا فضل له فى هذا على سائر الأديان، لأنها جميعًا إنما شرعت لجلب المصالح ودفع المفاسد.

● محمد: كلا، إن اليهودية والنصرانية ليستا مثل الإسلام فى مراعاة ذلك من غير فرق بين الشعوب البشرية، وهذا لأن دين الإسلام عام لكل الشعوب، فلم يراع فيه مصلحة خاصة لشعب منها، أما اليهودية فإنها كانت خاصة ببنى إسرائيل، فروعيت فيها مصلحتهم وحدها، وقد أورث هذا فى اليهود حب الذات، وإيثار مصلحتهم المادية على مصلحة غيرهم، فاتحدت عندهم مصلحتهم الدينية ومصلحتهم القومية، وصاروا إلى حب المادة وشهواتها أقرب منهم إلى حب الروح وفضائلها؛ لأن حب الروح وفضائلها نزعة إنسانية عامة لا تتفق مع نشأتهم فى عزلتهم، ونظرهم إلى أنفسهم دون غيرهم.

وقد جاءت النصرانية فقابلت إفراط اليهود فى النظر إلى المادة الدنيوية، بإفراطها فى النظر إلى الروح وتخليصها من علائق هذه المادة، فكانت الرهبانية هى المثل الأعلى فيها.

والمطلب الأسمى لأهلها، وقد بذلت فى هذه الغاية كل عنايتها، ولم

تعن بالتشريع الدنيوى عناية تذكر لها، وإنما اعتمدت فيه على تشريع التوراة قبلها، وهو تشريع خاص باليهود كما سبق، وليس بعام لجميع البشر، فالإسلام وحده هو الذى سلك سبيل الاعتدال فى مراعاة تلك المصالح، ولم يغلب مصلحة منها على أخرى.

وكذلك جاءت النصرانية بشريعة المحبة، وكان هذا فى مقابلة العداوة التى يضمرها اليهود لغيرهم من الشعوب، ولكن هذا وذاك لا يجعلان من النصرانية إلا شريعة أخلاق، ولا يلحقانها بالإسلام الذى هو دين تشريع وأخلاق معًا.

وكانت هذه المناظرة فى يوم أحدٍ، فلم يشأ أصحاب الدار أن يطيلوها إلى أكثر من هذا الزمن، فانتهت عند هذا الحد، وأجل الاجتماع إلى المناظرة الرابعة فى ميعادها من يوم الاثنين.

المناظرة الرابعة

عقدت هذه المناظرة فى ميعادها، وجلس محمد والقس (ز) فى المكان المعد لهما، ثم أخذا يتناظران فى الأصل الرابع والخامس من أصول الإسلام.

الأصل الرابع ـ مراعاة الزمان والمكان

● محمد: إن الإسلام بعد أن قام تشريعه على أساس جلب المصلحة ودفع المفسدة ضم إلى هذا أصلين آخرين يتصلان به، ويمكن أن يعدا من فروعه، ولكنهما مع هذا أصلان عظيمان من أصول الإسلام، فإذا أضيفا إلى الأصول السابقة كانا هما الأصل الرابع والخامس من الأصول الإسلامية، والأصل الرابع منها هو مراعاة الزمان والمكان، ووجه العلاقة بينه وبين الأصل الثالث أن المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان، والإسلام لم يشرع لشعب خاص أو زمن خاص حتى يراعى فيه مصلحتهما المكانية أو الزمانية، وإنما شرع لجميع الشعوب ولجميع الأزمان، فلا بد أن يراعى فيه هذا الأصل، لتتحقق المصلحة المقصودة فى جميع الأزمنة والأمكنة.

وكل من اليهودية والنصرانية ينكر هذا الأصل الذى جاء به الإسلام،

لأنه يؤدى إلى النسخ الذى تنكره اليهودية والنصرانية فى التشريع الإلهى، وقد عابا هذا النسخ الذى عمل به فى الإسلام، وتدرج به فى تشريعه حتى يأتى كل حكم من أحكامه فى الزمان والمكان الملائمين له، ولما عاب اليهود والنصارى هذا النسخ على الإسلام قال الله تعالى فى شأنه من سورة البقرة: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(البقرة: ١٠٦).

وقد انبنى على ذلك الأصل فى الإسلام فتح باب الاجتهاد فيه إلى ما شاء الله تعالى، فلم يغلق باب الاجتهاد فى الدين بموت النبى ﷺ بل بقى مفتوحا لعلماء المسلمين، ليصلوا باجتهادهم إلى ما يلائم حالهم فى كل زمان ومكان، ولا يضيق الأمر بهم كما ضاق باليهود والنصارى من قبلهم.

وبهذا كسب التشريع الإسلامى مافيه من سهولة ومرونة، ولم يضق بكل تجديد نافع يعود منه خير على أهله، أما اليهودية والنصرانية فقد خلتا بعدم مراعاة هذا الأصل من كل سهولة ومرونة، وضاقتا بكل تجديد نافع، لأنهما يريانه نسخا وتبديلا فى أحكام الله تعالى. حتى صارتا إصرًا وأغلالا على أهلهما، ولم يعودا صالحين للعمل بهما، وإلى هذا يشير قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(الأعراف: ١٥٧).

وكان على اليهود والنصارى أن يرحبوا بهذا الدين الذى ينقذهم من هذا الجمود الدينى، ويرفع عنهم ذلك الإصر وتلك الأغلال، ولكنهم لم

يقدروا نعمة الإسلام بهذا عليهم، وأخذوا يشاغبون فى النسخ وجوازه على الله تعالى، ويزعمون أن النسخ يؤدى إلى نسبة الجهل إليه وهو يتنزه عنه، ولا يخفى أنه لا جهل فى هذا ولا شىء، وإنما أمرهم فى هذا كما قال بعض الشعراء:

يـقـضى عـلى المـرء فى أيـام محنته

حتى يـرى حسنًا مـا ليس بالحسن

الأصل الخامس ـ التوسط بين الإفراط والتفريط

● محمد: وهذا الأصل الخامس من الأصول الإسلامية يراعى فيه أصل المصلحة أيضا، لأن الطريقة الوسطى تلتقى فيها دائما مصالح الناس على اختلاف طبائعهم وأحوالهم، وقد مدح فى الإسلام التوسط فى كل الأمور، وجعل الله المسلمين أمة وسطا بين سائر الأمم، فقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة: ١٤٣).

فراعى الإسلام فى أحكامه مطالب الروح والجسد، وحقوق الدنيا وحقوق الآخرة، وراعى فيما وضعه لتهذيب النفوس اعتدال القوة الفكرية، والقوة الشهوية، والقوة الغضبية، وهذا هو أصل الحكمة العملية[1]، فالاعتدال مطلوب عنده فى كل شىء حتى فيما سنه من

(١) تنقسم الحكمة إلى نظرية، وعملية، وإلهية، وخلقية، ورياضية.... إلخ.. والحكمة العملية هى المتعلقة بالأمور العملية التى نعلمها ونعمل بها، ومن أقسامها الحكمة المدنية، والمنزلية، والخلقية.

التعبد، وقد رأى النبى ﷺ رجلا اجتهد فى العبادة حتى غارت عيناه، فقال له: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق؛ إن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرًا أبقى». مسند أحمد

والإفراط والتفريط مذمومان عنده فى كل شىء كما ذما فى الحكمة العملية، وقد أباح من أجل هذا للمسلم أن يأخذ حظه من الدنيا وزينتها، بشرط ألا يصل به هذا إلى حد الإفراط، فقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣١، ٣٢).

والإسلام فى هذا يخالف اليهودية التى يغالى أهلها فى حب المادة، ويؤثرون الدنيا على الآخرة.

ثم أباح مع هذا للمسلم الزهد فى الدنيا وزينتها بشرط ألا يصل به الزهد إلى حد التفريط، وهو فى هذا يخالف المسيحية التى تطلب الزهد فى الدنيا إلى حد الرهبانية، والانقطاع فى دير أو صومعة عن الدنيا. وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ يعرض عليه أن يجب نفسه ليقطع شهوته فى النساء، فقال له عليه الصلاة والسلام. لا رهبانية فى الإسلام- لأن الرهبانية لا تلائم فطرة الإنسان، ولا يتم معها نظام العمران، وقد جاءت المدنية الحاضرة فحاربت هذه الرهبانية، ووافق نظرها إليها نظر الإسلام إليها من قبلها.

وكذلك سن الإسلام فى المال سنة الاعتدال، فحرم الإفراط فى الحرص عليه إلى حد البخل، فخالف بهذا اليهودية التى تفرط فى الحرص

على المال إلى الحد الممقوت، حتى أبيح فيها الربا إذا كان المأخوذ منه غير يهودى، وكذلك حرم التفريط فى المال إلى حد التبذير، وقد قال تعالى فى ذم المبذرين من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧).

ثم طلب التوسط بين الحرص والتبذير فقال بعد هذا من هذه السورة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

وقد جعل لهذا سبيله بما سن فى الإسلام من الإنفاق فى طرق الخير، وبما شرع فيه من فرض الزكاة فى المال، لأن الذى يسلك فى ماله هذا السبيل ينجو به من طرفى الإفراط والتفريط، فلا يبخل ولا يبذر، لأن التبذير لا يكون فى هذه الوجوه المحمودة، وإنما يكون فى شهوات النفس من الدنيا.

وقد شرع الإسلام فى المرأة شرعًا وسطًا، فلم يجحف بها كما أجحفت بها بعض الشرائع، ولم يساوها بالرجل فى كل شىء كما فعل هذا بعض آخر منها، بل ساواها بالرجل فيما لم تفضله فيه طبيعته على طبيعتها، وهو الأغلب فى أمره وأمرها، وميزه عليها فى أمور قليلة قضت بها سنة الفطرة، وحاجة الاجتماع، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وقوله تعالى فى سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤).

وكانت شريعة اليهود وبعض الشرائع القديمة تحرم المرأة من الميراث، وتجعله حقا خالصا للرجل، وكانت بعض الشرائع تسوى فيه بينها وبين الرجل، وهو أمر تأباه طبيعة الاجتماع، وما يكلف به الرجل من أمور أكثر من المرأة، وما يميل إليه المورث دائما من تفضيل أبنائه على بناته، وقد يصل به هذا الميل إلى حد أن يحرمهن من ميراثه، فلم يكن للإسلام بد من أن يسلك فى ذلك تشريعًا وسطًا بين التشريعين، فجعل للمرأة فى الميراث نصف ما للرجل فيه، وهو تقدير عادل لا يظلمها ولا يظلمه.

وهكذا سار الإسلام فى كل أحكامه، حتى كان للمسلمين فقه عظيم لا يضاهيه فقه آخر فى ثروته التشريعية، وفى تعدد مذاهبه واختلاف أحكامه، وحتى وسع المسلمين فى أزهى عصورهم، ولم يحوجهم إلى تشريع آخر يكملون منه حاجاتهم، وهو يباهى بهذا التشريع الديانتين السماويتين اللتين تنافسانه، لأنه لا يوجد فيهما تشريع عظيم يغنى أهلهما عن غيره، وهذه الأمم النصرانية توجد الآن فى أزهى عصورها، ولكنك تجدها تعمل فيها بالشرائع الوضعية الحديثة، لأنها لا تجد فى النصرانية تشريعًا يفى بحاجتها، ومن ينظر إلى هذه الشرائع الحديثة التى تعمل بها يجدها قريبة الشبه من الشريعة الإسلامية، وقد ذهب كثير من المنصفين إلى أنها مستمدة منها.

●● القس: أظنك أيها الفتى قد فرغت مما أردته من بيان أصول الإسلام، وقد صبرت عليك حتى قضيت حظ نفسك مما أردت، وكان لأدبك وهدوئك أثر كبير فى هذا الصبر الذى أخذت به نفسى معك.

فهل لك أن تنتقل معى إلى بعض من المآخذ التى نأخذها على

الإسلام؟ وتصبر علىَّ كما صبرت عليك، وتستمر فى هذا الجدال الهادىء إلى أن نفرغ منه.

● محمد: لك منى هذا أيها القس الفاضل، وإنى أشكر لك هذا الثناء علىَّ، وأسأل الله أن يهدينا فى هذه المناظرة إلى ما يرضيه، وموعدنا بما تريد من ذلك المناظرة الخامسة.

المناظرة الخامسة

كان عدد الحاضرين فى هذه المناظرة أكثر من غيرها، لأن القس (ز) أعلن أنه سيوجه فيها اعتراضات قوية على الإسلام، فأقبل الناس ليسمعوا تلك الاعتراضات من القس ويسمعوا أجوبة محمد عنها.

● القس: كيف تقول إن الإسلام أنصف المرأة ولم يجحف بها؟ وقد شرع تعدد الزوجات للرجل، وفى هذا ضرر كبير عليها، وتنغيص لحياتها الزوجية، والواجب أن تكون هذه الحياة بين اثنين من الرجل وزوجته، يتبادلان فيها الإخلاص للزوجية، والإخلاص لما يكون بينهما فيها من منزل ومال وولد.

●● محمد: إنكم تبالغون فى النظر إلى إباحة الإسلام تعدد الزوجات، كأنه أباح الزنا أو نحوه من المعاصى المحرمة فى الشرائع التى أنزلت قبله، وكأنه لم يبح من هذا ما كان مباحا قبله فى تلك الشرائع، وكأنه لم يهذب فى تشريعه ولم يبح الزيادة فيه على أربع زوجات، وكان مطلقًا فى تلك الشرائع، لا يقف فيها عند حد.

على أن الإسلام لم يشرع تعدد الزوجات على أنه واجب أو مندوب، وإنما شرعه على أنه مباح من المباحات، وحكم الإباحة الذى أعطاه الإسلام لتعدد الزوجات هو أولى الأحكام به، وهو الذى يناسب هذا

الدين العام الذى شرع لكل زمان ومكان، ووضع للشعوب البشرية على اختلاف أجناسها، لأن حكم الإباحة من المرونة بحيث لا يساويه فيها الأحكام الأربعة الباقية (الوجوب والندب والحرمة والكراهة) ولهذا تعترى المباح سائر الأحكام، ويجوز للسلطان أن يغير فيه ويبدل بحسب ما تقتضيه ظروف الأحوال والأزمان، فاختار الإسلام لتعدد الزوجات هذا الحكم المرن، ليبقى على أصله عند الحاجة إليه، ويمنع منه إذا أسيء استعماله، ولو أنه حرمه فى جميع أحواله لضاق الناس بهذه الحرمة فى ظروف كثيرة، كما يحصل فى الحروب التى يقل فيها عدد الرجال عن النساء، وتحتاج الأمة بعدها إلى زيادة عدد النسل، لتعوض به ما فقدته فيها، وتعدد الزوجات مع هذا من خير الوسائل لمعالجة أمر الزنا، فإذا كان فيه بعض من الشر- ولا شر فيه إذا لم يُسأ استعماله- فإنه أهون من الزنا وما فيه من الشر المستطير، والضرر الكبير، وإنه لا يعلم إلا الله تعالى كيف يكون حال الجسم وصحته، والأسرة وهناءتها، والأمة وتفرغ أفرادها للأعمال المفيدة، إذا أطلق للناس فى هذه الشهوة البهيمية؟

ولم ينس الإسلام خطر تعدد الزوجات إذا أُسيء استعماله، فقيده بقيود شديدة، ولم يبحه إلا لمن يعدل فيه بين زوجاته، ليحفظ بالعدل بينهن نظام الأسرة، ويسود به الإخلاص والصفاء بين الزوجات وأزواجهن، وبين الأولاد وآبائهم وأمهاتهم، وقد قال الله تعالى فى هذا التشريع من سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٣، ٤).

ثم قال بعد هذا من هذه السورة: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٢٩).

ومعنى هذا أن العدل الذى هو شرط فى إباحة تعدد الزوجات غير مستطاع كله، فيكون الأسلم لدين الرجل أن يقتصر على امرأة واحدة، ولهذا أرى أن الحكم الأصلى فى تعدد الزوجات هو الكراهة، وأنه لا يباح إباحة خالصة من الحرمة والكراهة إلا إذا دعت إليه الحاجة، وليس هذا شيئا أذهب إليه بتأثير تلك الاعتراضات على تعدد الزوجات، فقد نص عليه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع[1] فى كتابه (سلوك المالك فى تدبير الممالك) إذ وصى فيه صاحب المرأة بست وصايا، جعل الخامسة منها أن يقتصر على الواحدة ما أمكن لأنه أدعى للنظام. فهذا صريح فى أنه يرى كراهة تعدد الزوجات كما أرى، وفى أنه لا يرى أن الأصل فيه الإباحة كما يراه الجمهور.

● القس: قد ذكرت أن تعدد الزوجات من خير الوسائل لمعالجة أمر الزنا، فما بال الزنا يوجد عند المسلمين المبيحين لتعدد الزوجات، كما يوجد عند النصارى المحرمين لذلك التعدد؟

●● محمد: أنا لم أقل إلا أن تعدد الزوجات وسيلة من وسائل معالجة الزنا، وإذا كان هذا شأنه فإنه لا يكفى وحده فى القضاء على هذا المرض الاجتماعى، بل لابد مع هذا من وسائل أخرى كالعقاب عليه فى الدنيا

(١) أحمد بن أبى الربيع (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) من أرباب الحكمة وعلماء السياسة. وكتابه هذا (سلوك المالك فى تدبير الممالك) ألفه للخليفة العباسى المعتصم.

ونحوه، وهذه الوسائل إنما يراد منها تقليل تلك الأمراض التى يصاب بها المجتمع الإنسانى، لأن القضاء عليها غير مستطاع، ولا شك أن الزنا فى بلاد المسلمين أقل منه عند غيرهم، لاسيما حينما كان الحكم فى بلادهم لهم، ولم يكن لأولئك المستعمرين من أمم النصرانية، لأنهم يجبرونهم على إباحة الزنا، وإباحة شرب الخمر، وما إلى هذا مما فشا فى بلاد المسلمين على يد أولئك المستعمرين.

● القس: إذا كنت أيها الفتى ترى أن الكراهة هى الحكم الأصلى لتعدد الزوجات، فما بال نبيكم قد أباحه لنفسه؟

وما باله قد خص نفسه بالجمع بين زوجات أكثر من العدد الذى قيد به أتباعه؟ وقد اجتمع فى عصمته تسع زوجات، فلم يقتصر على أربع منهن كما اقتصر غيره على أربع نسوة.

●● محمد: كلا أيها القس الفاضل، وإن نبينا لم يبح من تعدد الزوجات لنفسه ما كرهه أو حرمه على غيره، لأن تشريع تعدد الزوجات لم ينزل إلا فى أواخر السنة الثامنة للهجرة، وكان النبى ﷺ قد بنى بأزواجه جميعا، إذ كانت آخر زوجاته ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهى زوج عمه حمزة بن عبدالمطلب شهيد غزوة أحد، وخالة عبدالله بن عباس، وقد عقد عليها النبى ﷺ فى عمرة القضاء بمكة، وكان هذا فى السنة السابعة للهجرة، ولم يدخل بها إلا بعد خروجه من مكة حيث كان بسرف، فلما نزل تشريع تعدد الزوجات، وحرمت الزيادة على أربع فى عصمة واحدة، حرم على النبى ﷺ أن يزيد على من فى عصمته من زوجاته، ونزل فى هذا قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ

مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

ولم يمتز النبى على غيره فى هذا التشريع إلا بأنه أبيح له أن يبقى فى عصمته زوجاته جميعًا، فلم يفارق منهن الزائدات عن الأربع، أما غيره فأجبر بعد هذا التشريع على مفارقة الزائد عن هذا العدد، وكان هذا فى مصلحة زوجات النبى ﷺ لأنهن لم يكن يرضين بشرف التزوج به بديلا، فلم يكن شأنه فى هذا كشأن غيره، ولم تكن المصلحة فيه عائدة عليه، بل كانت عائدة على زوجاته. وهذا إلى أنهن حرمن على غيره من الرجال، ولم يبح لأحد أن يتزوجهن بعده، حتى يبقى لهن اسم أمهات المؤمنين إلى وفاتهن، فلا يصح له مع هذا أن يفارق واحدة منهن.

وقد رأى القس أن يرجئ الكلام فيما بقى عنده من تلك المؤاخذات إلى المناظرة السادسة، فانتهت بذلك هذه المناظرة.

المناظرة السادسة

لم ينقص عدد الحاضرين فى هذه المناظرة عن سابقتها، وقد أخذ القس (ز) يوجه اعتراضاته، وأخذ محمد يجيبه عنها.

● القس: بقى مما نأخذه على الإسلام فى شأن المرأة تشريع الطلاق، فقد أعطى الرجل به أقسى سلاح يصيب به امرأته فى مقتلها، ويهدد دائما هناءتها الزوجية، ويجعلها تعيش مع الرجل بالرهبة لا بالرغبة، وهى عيشة لا سعادة فيها ولا هناءة.

●● محمد: إن شأن الطلاق عندنا كشأن تعدد الزوجات، فلم يبح الإسلام منه ما كان محرما فى الشرائع المنزلة قبله، بل أباح منه ما كان مباحا فيها، فلا غضاضة فى هذا عليه، وقد عرفت أن حكم الإباحة هو الحكم المرن من بين الأحكام الشرعية الخمسة، وأنه هو الحكم الذى يسهل سير التشريع فيه على مقتضى الظروف والأحوال، بين إباحة وحظر، وإطلاق وتقييد، فيكون حكم الإباحة فى الطلاق هو المناسب لكل زمان ومكان، والموافق لغيره من أحكام هذا الدين العام. على أن الإسلام لم يبحه مع هذا إباحة خالصة، فقد روى عن النبى ﷺ (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) «صحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن ابن ماجة» والحقيقة أن

إباحته إنما تكون عند الحاجة الشديدة إليه، فإذا لم تكن الحاجة إليه شديدة كان حكمه الكراهة، وإذا لم يكن إليه حاجة أصلا كان حكمه الحرمة، لأنه يكون ظلما للزوجة، والظلم حرام فى هذا وفى غيره[1].

ومع هذا لم ينس الإسلام خطر الطلاق، ولم ينس أنه قد يساء استعماله فيقوض نظام الأسرة، ويكون ضررًا كبيرًا على الأمة، فقيد شرعه بالمصلحة، وجعله لمعالجة فساد الحياة الزوجية، ولم يجعله لمجرد الهوى والشهوة، بل رغب الرجال فى إمساك النساء عند ضعف المحبة الزوجية، وضعف رغبة الرجل فى المرأة، فلا يكون الطلاق إلا بعد فساد الحياة الزوجية، وبعد اليأس من معالجة هذا الفساد بالوسائل الأخرى، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: ١٩).

فالطلاق فى الإسلام لم يشرع إلا لأغراض تدعو إليه، كأن تسوء العشرة بين الزوجين لعدم موافقة الطباع أو نحوه، فحينئذ تكون الفرقة بينهما خيرًا من العشرة السيئة، لما يترتب عليها من الفساد فى أخلاق أولادهما، وما يتبع هذا من سوء السمعة وقبح السيرة.

وقد أمر الإسلام قبل الطلاق بمعالجة المرأة بأنواع من التأديب، ولم ير أن تفاجأ به عند سوء العشرة مفاجأة، فشرع فى هذه الحالة العظة والهجر فى المضاجع ونحوهما، وشرع الصلح بين الزوجين بتحكيم رجلين من

(١) جاء فى المبسوط جـ٦ ص ٢ أن بعض الفقهاء ذهب إلى حرمة الطلاق.

أهلهما إذا لم يقدرا على معالجة ذلك بأنفسهما، وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ (النساء: ٣٤).

ثم بعد هذا كله يأذن الله تعالى فى الطلاق، ولا يجعل هذا الإذن مرة واحدة لا يجوز بعدها تدارك أمره، والرجوع إلى الزوجية عند زوال أسباب الشقاق، بل يجعله على ثلاث مرات، يمكن فى المرة الأولى والثانية تدارك ذلك، وفى تجربة المرتين كفاية عن غيرهما، ولا يصح أن يزاد عليهما، لئلا يكون الزواج ألعوبة، ويضيع بين الناس ما له من الحرمة، وقد ورد فى تشريع هذا قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

ولاشك بعد هذا فى أن الطلاق فى الإسلام شرع عادل، وضرورة من ضرورات الاجتماع البشرى ، ويكفى فى هذا أن كثيرًا من الحكومات النصرانية فى أمريكا و أوروبا أخذت تعمل الآن به، مع تحريم شريعتهم النصرانية له.

● القس: إن هذا لا يمكن أن يؤخذ حجة علينا، لأن هذه الحكومات تبيح الزنا وغيره مما تحرمه النصرانية، فشأنها فى الطلاق مثل شأنها فى الزنا وغيره.

●● محمد: شتان أيها القس الفاضل بين الطلاق والزنا، على أنى لم أذكر عمل حكوماتكم فى الطلاق إلا بعد أن شرحت أمره، وبينت أنه لا شىء فيه بقطع النظر عن عمل هذه الحكومات به .

وهنا اتفق محمد والقس على أن يكتفيا بما ذكراه فى هذه المناظرة، على أن يجتمعا فى الغد للمناظرة السابعة.

المناظرة السابعة

انتهى الكلام فى المناظرة السابقة باقتناع الحاضرين بعدالة التشريع الإسلامى فى شأن المرأة، وانتقل الكلام فى هذه المناظرة إلى مسألة الرق فى الإسلام، وهى من المسائل التى تؤخذ عليه، ويكثر الشغب بها حوله.

● القس: تقول أيها الفتى إن الإسلام ساوى بين الناس، ولم يجعل فضلا لعربى على عجمى إلا بالتقوى، مع أنه قد شرع الرق، وجعل من بعض الناس سلعًا تباع وتشترى كالبهائم فى السوق، ويقضى عليها بالشقاء وذل الرق فى هذه الحياة، ولا يمكن أن يقال مع هذا إن الإسلام قد ساوى بين الناس، وجعلهم جميعًا فى منزلة واحدة أمام الله، أما نحن معشر المسيحيين فقد جاهدنا فى هذا العصر جهادنا المحمود فى إبطال الرق البشرى، حتى قضينا عليه فى سائر أنحاء الأرض، وتمتع الناس على اختلاف أجناسهم بنعيم الحرية.

●● محمد: إن الإسلام فى إباحته الرق لم يبح منه أيضًا ما حرمته الشرائع المنزلة قبله، فقد كان مباحًا فى اليهودية وفى النصرانية قبل الإسلام وبعده، ولا فضل للنصرانية فى هذا الجهاد الحديث فى إبطال الرق، وإن كنا نرى أنه جهاد ناقص، ونرى أن ما عمله فى الرق ليس له قيمة كبيرة.

● القس: كيف تنكر أيها الفتى فضل هذا الجهاد؟

●● محمد: نعم أنكر فضله أيها القس الفاضل، وأنت معذور لأنك لا تشعر بما نشعر به معشر أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة من ذلك الرق المفروض علينا منكم، وقد كنا قبلكم فينا سادة وأرقاء، فلما تسلطتم علينا أصبحنا جميعًا أرقاء لكم، وأصبحت دماؤنا مهدورة، وأموالنا مسلوبة، وحريتنا مفقودة، ولا رق أيها القس الفاضل أفظع من هذا الرق، لأن رق الشعوب أذل من رق الأفراد.

وقد غفلتم أيها القس الفاضل عن معنى الرق حينما ظننتم أنكم قمتم بإبطاله فى هذا العصر، مع أن الرق لا يبطل حقيقة إلا إذا بطلت الحروب بين البشر، وما دامت الحروب قائمة بين البشر فهناك أسر، وما دام هناك أسر فهناك رق، لأن الرق لازم للأسر، وقائم ما قامت الحرب، والأسير لا يملك نفسه عند آسره؛ وهو عنده لا حرية له ولا إرادة، وإذا لم تنته الحرب بصلح بين الفريقين المتحاربين تطلق فيه الأسرى وترد إليهم حريتهم، فإنهم يبقون أرقاء عند آسريهم، ويموتون أرقاء بينهم.

والرق فى الإسلام مقصور على هذا المعنى الذى لا يزال قائمًا، والأرقاء فى الإسلام هم أسرى الحروب الذين لم يحصل مَنٌّ بإطلاقهم، أو صلح على فك أسرهم، ولا يعرف الإسلام هذا الرق القائم على التلصص والنهب، بل هو عنده رق باطل، والتجارة فيه عنده من أكبر الكبائر.

ولا شك أنه إذا عاش أولئك الأسرى بين المسلمين ولم يحصل صلح على إطلاقهم، فإن المصلحة تقضى بوضعهم فى رقابة المسلمين، فلا تطلق لهم حريتهم بينهم وهم من أعدائهم، لئلا يستعملوا ذلك فى إلحاق ضرر بالمسلمين، ويكونوا عيونًا لأعدائهم عليهم، فإذا مضت عليهم مدة فى

تلك الرقابة، وأمن بعد ذلك أمرهم بدخولهم فى الإسلام أو نحوه، فإن الإسلام يرغب الناس فى إطلاقهم، وإزالة الرق عنهم، وقد رغب المسلمين فى إبطال الرق رغبة شديدة، وسن لإبطاله من الوسائل ما لم يسن فى شرع قبله، فمن عتق فى الحياة رجاء ثواب الله تعالى فيه، إلى تدبير بعد الموت، إلى كتابة على مال معين، إلى عتق فى كفارات لا تحصى ولا تعد.

ويمكننا أن نقول بعد هذا إن الحكم الأصلى للرق فى الإسلام الكراهة لا الإباحة، لأنه ينظر إليه كشىء غير مرغوب فيه، وشأنه عنده كشأن الطلاق ونحوه مما كان للضرورة حكمها فى إباحته.

على أن الرق فى الإسلام لا نصيب له من اسمه فيه، اللهم إلا فى أحكام نادرة خص بها الأرقاء، وبعضها قضت به الشفقة عليهم، وبعضها الآخر قضت به بيئتهم، وهم والأحرار سواء أمام الله تعالى، بل قد يفضلون عنده الأحرار بالصلاح والتقوى، فالأرقاء فى الإسلام إخوان الأحرار ولا يجوز للأحرار فيه أن يمتازوا على أرقائهم فى مأكل أو مشرب أو ملبس أو نحو ذلك، ولا أن يقسوا فى معاملاتهم، أو ينظروا إليهم على أنهم أقل منهم، وقد وصل الأرقاء بهذا فى الإسلام إلى ما لم يصلوا إليه عند غيره، وكان منهم فيه الملوك، وكان منهم الولاة والوزراء والساسة، وكان منهم قواد الجيوش فى الحروب وغيرها، يطاعون فى ذلك كله كما يطاع الأحرار، ويخضع لأمرهم كما يخضع لأمر غيرهم، وقد روى فى هذا عن النبى ﷺ: (اسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشى أجدع له زبيبة) «صحيح البخارى ومسلم».

وإذا كان هذا شأن الرق فى الإسلام فهو أول من يضع يده فى يد من

يعمل على إلغائه، بشرط أن يكون ذلك خالصًا لوجه الله تعالى، وألا يتخذ وسيلة لفرض الرق على الشعوب بعد إلغائه فى الأفراد، ولم يعط الإسلام الرق إلا حكم الإباحة، وهو كما سبق حكم مرن لإمام المسلمين أن يعمل فيه بما تقتضيه المصلحة، وأن يجرى فيه على حسب الظروف والأحوال.

وهنا طلب القس من محمد أن يقف عند هذا الحد، ولم يعقب على ما قاله بكلمة، ثم انصرف الحاضرون على أن يعودوا غدًا لسماع المناظرة الثامنة.

المناظرة الثامنة

جاء الغد، وعقدت هذه المناظرة فى ميعادها منه، واتفق محمد والقس (ز) على أن يكون الحرب فى الإسلام موضوع هذه المناظرة.

● القس: إن نبيكم عندنا كان ملكًا لا نبيًا، لأن حياته أشبه بحياة الملوك منها بحياة الأنبياء، فقد قام أمره بالحرب، واعتمد فيه على استعمال السيف، ولم تكن دعوته سلمية بريئة كدعوة غيره من الأنبياء، تعتمد على الآيات الإلهية، وتؤيد بالمعجزات التى يؤيد الله تعالى بها الرسل، فإما أن يؤمنوا بها فينجوا، وإما أن يكفروا بها فيأخذهم الله بعذاب الدنيا أو الآخرة، وليس على النبى أن يحارب فى هذا أو يقاتل، لأن الله تعالى قد أرسل الأنبياء هداة مبشرين ومنذرين، ولم يرسلهم ملوكًا فاتحين، وقد أعطى دينكم لأهله حق الفتح، فشهروا سيوفهم فى وجوه الناس، وأخذوا العالم بحروب قاسية متصلة غير منقطعة، ولم يكن من الممكن أن يكون لدينكم فى الناس غير هذا الأثر، لأنه لم يقم إلا على القتال، وقد عد الجهاد فيه فرضا من الفروض المؤكدة.

●● محمد: رويدًا أيها القس الفاضل، فقد انطلقت فى دعاوى غير صحيحة، وإنى سأنقضها لك واحدة فواحدة.

إنك ادعيت أولا أن نبينا عندكم ملك لا نبى، لأن حياته كانت أشبه بحياة الملوك منها بحياة الأنبياء، وهذا معناه أنك ترى أن النبوة لا تجامع الملك، وليس لهذه الدعوى حظ من الصواب، لأنه لا منافاة بين الملك والنبوة، وإذا كان من الأنبياء السابقين قبل نبينا محمد ﷺ من كانوا أنبياء غير ملوك، فإن فيهم من كانوا أنبياء وملوكًا، كداود عليه السلام، وقد قام بالملك فى بنى إسرائيل بعد ملكهم طالوت، وكان طالوت أول ملوكهم، وكابنه سليمان عليه السلام، وقد قام بالملك بعد أبيه داود، وورثه عنه كما يورث الملك فى كل دولة ملكية، ومع هذا لم يكن نبينا ملكًا، ولم يعمل على أن يكون لأحد من قرابته بعد وفاته هذه الصفة، وقد أراد بعض الولاة فى عهد عمر بن عبدالعزيز أن يأخذ الجزية من قوم ظنهم أسلموا هربًا منها، فأنكر عمر ذلك عليه، ومنعه من أن يأخذ الجزية منهم، وقال له: إن الله بعث محمدًا ﷺ هاديًا، ولم يبعثه جابيا.

ثم ادعيت ثانيا أن الإسلام قام أمره بالحرب، وأن دعوته لم تكن سلمية بريئة مثل دعوة غيره من الأديان، وهى دعوى غير صحيحة أيضًا، لأن دعوة الإسلام سلمية بريئة مثل دعوة غيره من الأديان السماوية، وقد أيد فيها النبى ﷺ بالمعجزات كما أيد غيره من الأنبياء، وكيف لا يكون الإسلام كذلك وهو الذى ينطق بها دعوة صريحة إلى السلام فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

ثم أمر أتباعه بالجنوح إلى السلم إذا جنح أعداؤه له وإن لم يكونوا مخلصين فى جنوحهم، فقال تعالى فى سورة الأنفال: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ

لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦١ : ٦٣).

وقد مكث الإسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة يدعو بالسلم، ويتحمل من الأذى ما لا يطاق حمله، إلى أن تآمر المشركون على قتل النبى ﷺ، فهاجر منهم إلى المدينة، وأذن الله تعالى له فى قتالهم، لا ليدعوهم بالقتال إلى الإسلام، ولكن ليكف عدوانهم عنه، كما تنطق بهذا الآيات الواردة فى شرع القتال له، قال تعالى فى سورة الحج: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٣٩ : ٤٠).

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠، ١٩١).

وإذا كان من الواجب فى الدعوة الدينية أن تكون سلمية، فإن من الواجب أن تعطى حق الدفاع عن نفسها، لأن هذا من الحقوق الطبيعية التى لا يمكن إنكارها، ولولا هذا الحق الطبيعى فى الناس لاختل العمران، وفسد الاجتماع، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ

ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

ثم ادعيت ثالثا أن الإسلام أعطى لأهله حق الفتح، فشهروا به سيوفهم فى وجه العالم، وأقاموها حروبا دائمة لا نهاية لها، وما على الإسلام شىء فى أن يعطى لأهله هذا الحق، لأنه يقصد منه فيه إقامة العدل بين الناس، وتقويض دعائم الحكم القائم على الفساد والاستبداد، وقد فتح المسلمون بلاد الفرس والروم فلم يستأثروا بشىء دون أهلها، ولم يعملوا على بقاء شخصيتهم متميزة ممتازة على شخصية المحكومين، بل اندمجوا فيهم، وأخذوا كثيرًا من عاداتهم، وخالطوهم بالمصاهرة وغيرها، حتى فنيت شخصية الحاكمين فى المحكومين، وصاروا جميعًا شعبًا واحدًا لا حاكم فيه ولا محكوم، وهذا فى الحقيقة ليس بفتح، وإنما هو العمل على التقريب بين الشعوب، وإزالة الفوارق الموقعة للشقاق بينهم، وهذا بلاشك مقصد نبيل، وغرض من أشرف الأغراض.

على أن الإسلام لم يعط لأهله حق الفتح إلا لحماية دعوته أيضًا، فإذا أمن جانب قوم فإنه ليس لأهله أن يقصدونهم بحرب، أو يطمعوا فى بلادهم وأموالهم، وقد نشأ المسلمون فى بلادهم بجزيرة العرب، وكان بعض منها يملكه الفرس، وبعض منها يملكه الروم، فلما ظهر المسلمون فى بلاد العرب، وأخذوا يستردون هذه البلاد من الفرس والروم، ويوجهون إليهم دعوة سلمية بريئة إلى دينهم - كبر ذلك عليهم، وقامت الحرب بهذا بين الفريقين، وكان بها ما كان من تلك الفتوحات الإسلامية، وقد انتصرت فيها قوة الإيمان على قوة العَدد والعُدد وذل فيها كبرياء كسرى وقيصر، وعز تواضع أبى بكر وعمر.

ولا يبلغ الإسلام فى هذا ما بلغته اليهودية التى نشأت فى مصر، ثم سارت إلى أرض الميعاد بفلسطين والشام لفتحها، وإقامة دولة يهودية بدل الدولة الوثنية التى كانت قائمة بها، ولا شىء فى هذا على اليهود أيضًا، لأن سنة الله قضت بجعل الأرض للصالحين من عباده، كما قال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

وكما قال فى سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥).

فالصالحون لعمارة الأرض يبدلون جدبها خصبا، وخوفها أمنا، وفسادها صلاحا، فينتفع الناس بها، وينتشر الخير بين أهلها.

● فقال القس لمحمد: يكفى هذا منك أيها الفتى، وسنجتمع غدًا للمناظرة التاسعة.

المناظرة التاسعة

رأى القس (ز) أن محمدًا كان قوى الحجة فى جميع المسائل التى أثارها، فأراد أن يثير فى هذه المناظرة مسألة ظن أن محمدًا لا تنهض فيها حجته، كما نهضت فى غيرها من المسائل، وجعل هذه المناظرة لبحث معجزة القرآن الكريم.

● القس: إن الرسالة لا تثبت إلا بالمعجزة، ولم يبعث الله تعالى رسولا إلا ومعه معجزته التى تدل على رسالته، فكانت لنوح معجزة الطوفان، ولإبراهيم معجزة النار التى ألقى فيها فكانت بردًا وسلامًا عليه، ولموسى معجزة انشقاق البحر وغيرها من معجزاته، ولعيسى معجزة إحياء الموتى وغيرها، أما نبيكم فلا معجزة له كغيره من الأنبياء، وقد كان قومه يطلبون منه ذلك فلا يجيبهم إليه، ويقول لهم فى ذلك ما قاله القرآن فى سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ (الإسراء: ٥٩).

وكذلك قال فى هذه السورة: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠، ٩٣).

●● محمد: إن لنبينا محمد ﷺ معجزة من أكبر المعجزات، إن لم تكن أكبرها وأبقاها على الدهر، وهى معجزة القرآن الكريم ، فقد تحدى قومه به كما تحدى غيره من الأنبياء أقوامهم بآياتهم، وورد هذا فى قوله تعالى فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٣، ١٤).

وفى قوله أيضًا من سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤).

ثم أعلن فى سورة الإسراء عجز الإنس والجن عنه فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

فتمت بهذا معجزته، ولا يعيبنا بعد ثبوتها أن يكون وجه إعجازه بلاغته أو صرف الناس عنه أو غيرهما مما قيل فى إعجازه.

● القس: إذا كانت هذه معجزة نبيكم فما معنى هذه الآيات التى ذكرتها لك؟ وهى صريحة فى أنه لم يرسل بآية كما أرسل الأنبياء الأولون من قبله.

●● محمد: إن الآيات التى يعنيها الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ (الإسراء: ٥٩).

هى آيات العذاب التى أهلك بها عادا وثمود وقوم نوح وغيرهم من المكذبين لرسلهم، لأن رسالة محمد ﷺ كانت رسالة رحمة لا رسالة عذاب، فاختار الله تعالى لها تلك المعجزة القرآنية الباقية، ليأخذهم بالإقناع لا بالتخويف، ويبقى الأمل فى إيمانهم بها لبقائها وعدم انقطاعها، ولا يأخذهم بعذاب الدنيا كما أخذ من قبلهم بعد انقضاء نزول آياتهم وتكذيبهم بها، لانقطاع الأمل فى إيمانهم بعدها.

على أن دعواك أيها القس الفاضل أن الرسالة لا تثبت إلا بالمعجزة غير صحيحة، وإنما تلزم المعجزة فى إثبات الرسالة عند عدم الإيمان بها، وهذا فى الغالب إنما يكون من الجهلة والمعاندين الذين لا ينظرون بعقولهم، وإنما يريدون أن يؤمنوا بحواسهم، وهو إيمان ناقص لا بقاء له، وقد آمن بنو إسرائيل بمثل هذا فى مصر، وأراهم الله فيها من تلك الآيات العجيبة ما أراهم، وأنقذهم من ظلم فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. ثم كان منهم ما ذكره الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

وكذلك كان منهم ما ذكره فى سورة المائدة مما كان سببًا فى ضرب التيه عليهم فى صحراء سينا: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا

حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٠، ٢٦).

فهذا كان مقدار إيمان بنى إسرائيل بموسى بعد تلك المعجزات الحسية، وإنه لا يمكن أن يذكر بجانب إيمان المسلمين الذين اختار الله لهم معجزة القرآن، وأخذهم فيه بالإقناع والبرهان، وقد وقف النبى ﷺ معهم فى غزوة بدر مثل موقف موسى مع قومه، فقالوا له على لسان المقداد بن الأسود رضى الله عنه: يا رسول الله، امض لما أمرك، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤).

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

(١) موضع وراء مكة بخمس ليال ـ مما يلى البحر ـ وقيل بلد باليمن ـ أقصى حجر باليمن ـ ويضرب به المثل فى البعد. قال الشاعر:

سقى الأمطار قبر أبى زهير ... إلى سقف إلى برك الغماد

المناظرة العاشرة

ذهب محمد إلى دار المبشرين فى ميعاد المناظرة التاسعة فوجد القس (ز) ينتظره فيها، ثم قامت بينهما هذا المناظرة:

● القس: يا محمد، لا يكفى فى معجزة القرآن أن يعجز العرب ببلاغة أسلوبه، وحسن تأليفه، بل لابد مع هذا أن يكون بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما جاء فى بعض سوره، فلا يصح إذا كان من عند الله أن يكون فيه اختلاف فى شىء من الأشياء، أو أن يكون فيه غلط فى ذكر تاريخ، أو فى ذكر نسب، أو فى غير هذا مما جاء فيه.

●● محمد: نحن معشر المسلمين نقر ما قلت أيها القس ونؤمن به، وقد جاء هذا فى قوله تعالى من سورة فصلت: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

وهذا من ضمن إعجازه عندنا، لأنه لو كان من البشر لجاز عليه ما يجوز عليهم من الخطأ والنسيان.

● القس: يا محمد، أنا لا أطلق القول جزافًا، وإنما أقوله وعندى شواهد عليه، وإنى سأذكر منها هذا الشاهد:

لقد نسب القرآن مريم أم عيسى إلى عمران أبى موسى، وجعلها أختًا

لهارون أخيه، مع أن موسى أقدم من عيسى بنحو من ألف وستمائة سنة، وقد كان أبو مريم هو هالى أو عالى، وهو من نسل داود عليه السلام، وداود من سبط يهوذا بن يعقوب عليه السلام، أما موسى وهارون فهما من سبط لاوى بن يعقوب، فكيف يجعل القرآن عمران أبا لمريم؟ وكيف يجعل هارون أخا لها؟ مع أن حقيقة نسبها هو ما ذكرت.

وقد جاءت نسبة مريم إلى عمران فى سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢).

وفى سورة آل عمران: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٣، ٣٦).

ثم قال: فما تقول فى هذا يا محمد؟

●● محمد: سأقدم لك عن هذا جوابًا لا أحب أن أكتفى به، وإن كان فيه كفاية عند كل منصف، وهو أنه كان يصح لك أن تطعن بهذا على القرآن ولو كان يسلم صحة كل ما جاء فى كتبكم، ولكنه لا يسلم صحة كل ما جاء فيها، بل يصرح فى آيات كثيرة أنكم أدخلتم فيها من التحريف ما أدخلتم، وبهذا كان القرآن مهيمنًا عليها، ولم تكن هى مهيمنة عليه، حتى يحتج بها عليه فى شىء من الأشياء.

ولا شك أن هذا يسقط كل ما ذكرته من غير بحث ولا مناقشة، لأنه لا يمكنك أن تحج خصما بدليل نقلى إلا إذا اعترف بصحة ما نقل منه، كما تقرر فى علم أدب البحث والمناظرة.

● القس: هذا قد يكفى فى الجواب يا محمد، ولكنه لا يزيح كل أثر فى النفس من جهة ما ذكرت، ولا سيما عند من لا يعترف بصحة كتابكم وكتبنا، وقد يستند عليه فيما يزعمه من بطلانها كلها لتناقضها فيه.

●● محمد: نعم أيها القس قد يستند بعض أعداء الأديان على هذا فى الطعن عليها، ولهذا رأيت ألا أكتفى بالجواب الذى قلت إن فيه الكفاية فى إبطال ما ذكرت، وأن أضم إليه جوابًا آخر على تسليم صحة ما جاء فى هذه الكتب.

● القس: يا محمد، إنك لو وفقت بين كتابكم وكتبنا فيما ذكرت تكون موفقًا كل التوفيق، وتكون قد أحسنت إلى كتبنا وكتابكم.

●● محمد: إنه لا مانع من أن يكون عمران الذى نسبت مريم إليه فى القرآن هو عمران أبا موسى، لأنه مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحوهم من الآباء الذين يصح أن ينسب إليهم كل يهودى، لعظمتهم وشهرتهم بين اليهود، وقد ورد فى الإنجيل أن عيسى جلس على كرسى أبيه داود، وكان بينه وبين داود أكثر من عشرة آباء، وقد قال يعقوب لابنه يوسف فى سورة يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف: ٦).

وإبراهيم جده الثانى، وإسحاق جده الأول.

ثم قال: وإنك إذا رجعت أيها القس إلى الآيات التى نقلتها من سورة آل عمران تجدها ظاهرة فى أن عمران واحد فى هذه الآيات، لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى، ولا شك أن عمران فى قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣).

هو عمران أبو موسى وقد كانت أم مريم تسمى حنَّا بنت فاقوذا، وهى أخت إيشاع (أليصابات) زوج زكريا عليه السلام، وهما من نسل هارون بن عمران[1] وعلى هذا يكون عمران جدها لأمها، وهذا أيضًا يصح به أن تكون بنتا له، لأن الجد أب كما سبق.

● القس: يا محمد، هل كان عمران مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من آباء اليهود الأولين، حتى تصح نسبة كل يهودى إليه؟.

●● محمد: لقد كان عمران مثل إبراهيم وغيره من آباء اليهود الأولين، ويكفى أن آله ذكروا مع آل إبراهيم فيمن اصطفاهم الله على العالمين، كما جاء فى الآية السابقة من سورة آل عمران، وكيف لا يكون عمران وآله مثل إبراهيم وآله؟ وموسى وهارون ابنا عمران هما اللذان رفعا شأن بنى إسرائيل، وأنقذاهم من ذل العبودية فى مصر، وسارا بهم إلى الأرض الموعودة لهم، فصار لهم بها شأن أى شأن، ودولة من أكبر الدول.

● القس: يا محمد، إذا سلمت لك أن مريم يصح أن تكون بنتا لعمران على هذا الوجه، فكيف يصح أن تكون أختا لهارون ابنه؟ ولماذا جعلت أختا له ولم تجعل أختا لموسى أخيه؟

---

(١) انظر إنجيل لوقا ـ ص ١ ـ ٥ ص ١ ـ ٣٦.

●● محمد: هذا يرجع أيها القس إلى أمر من تاريخ بنى إسرائيل ما كان نبينا محمد ﷺ ليعلمه فى أميته، وإنما هو رسول رب العالمين، علمه ما لم يكن ليعلمه، وذكر له فى القرآن الكريم من هذا وغيره ما يدل على أنه ليس من عنده.

لقد كان أحبار اليهود من أبناء هارون عليه السلام، وكانت كهانة بنى إسرائيل متوارثة فيهم، وكانوا يلون من بيت المقدس ما يلى السدنة من الكعبة عند العرب، فلما كبرت حنا أم مريم وأمسك عنها الولد دعت الله أن يهب لها ولدًا، ونذرت أن تهبه لبيت المقدس، فيكون من أحباره وسدنته، فأجاب الله دعاءها فحملت بمريم، وقد مات أبوها قبل أن تضعها، فلما وضعتها لفتها فى خرقة وحملتها إلى بيت المقدس، وتركتها عند أحباره من أبناء هارون، فتنافسوا فيها أيهم يكفلها؟ ثم اقترعوا عليها، فخرجت قرعتها لزكريا زوج خالتها إيشاع، فاهتم بتربيتها اهتمامًا عظيمًا، ولما شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محرابا فى بيت المقدس، وجعل بابه فى وسطه، فلا يرقى إليه إلا بسلم، ولا يصعد إليها أحد غيره.

وبهذا صارت مريم من أحبار اليهود، كما قال تعالى فى سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢).

وقد سبق أن الأحبار من أبناء هارون عليه السلام، فهو جدهم الأعلى وأصل قبيلتهم، وهم فى هذا كآباء قبائل العرب من قريش وتميم وقيس وغيرهم، وكان العرب ينادون كل واحد من قريش مثلا ـ يا أخا قريش ـ وكل واحدة منهم ـ يا أخت قريش ـ وعلى هذا يصح أن ينادى كل

حبر من أحبار اليهود ـ يا أخا هارون ـ وأن ينادى من يسلك من النساء مسلكهم ـ يا أخت هارون.

فلما حملت مريم بعيسى عليه السلام ظن قومها بها السوء، وقالوا لها كما جاء فى سورة مريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ (مريم: ٢٨).

وآثروا فى ندائها هذا النداء، لأن من كان مثلها من الأحبار لا يليق به أن يرتكب ما ارتكبته فى زعمهم، ولا شك أن هذا أيضًا مما يصح به جعلها بنتا لعمران أبى هارون، لأنه إذا صح به جعلها أختا له صح به جعلها بنتا لأبيه.

● القس: يا محمد، هذا جميل جدًا منك، ولكنى لم أجده فى كتب التفسير وغيرها من كتب علمائكم الأولين.

●● محمد: أيها القس، كم ترك الأول للآخر، ولكنى أذكر لك بعد هذا أنكم مختلفون فى اسم والد مريم، فقد جاء فى إنجيل يعقوب وإن كنتم لا تعترفون به أن اسمه يهوياقيم ، وهو كما ذكر ابن خلدون بمعنى عمران[1].

وقد جاء اسم هالى أو عالى فى إنجيل لوقا، فقال: ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن الناس ابن يوسف بن هالى بن منثات ـ وهذا صريح فى أن هالى أبو يوسف لا أبو مريم، ولكن إنجيل متى ذكر فى نسبه أنه ابن يوسف بن يعقوب بن متان، وهذا صريح فى أن أبا يوسف هو يعقوب لا هالى.

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٢ ص ١٤٤.

فلما وجدوا هذا التناقض بين الإنجيلين دفعوه بأن هالى كان أبا يوسف من جهة مريم، لأنه لم يكن لأبيها ولد ذكر، فنسب إليه يوسف فى إنجيل لوقا على ما كان معروفًا عند اليهود.

وبهذا انتهت هذه المناظرة، فانصرف الناس على أن يحضروا لسماع المناظرة الحادية عشرة.

المناظرة الحادية عشرة

اجتمع الناس فى ميعاد هذه المناظرة، وابتدأ القس (ز) يوجه اعتراضاته إلى محمد، فقال:

● القس: يا محمد، تزعمون أن الإسلام دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء، كما جاء فى سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

فكيف تكونون على دين هؤلاء الأنبياء؟ وقبلتهم إلى بيت المقدس، وقبلتكم إلى الكعبة، فلو كنتم على دينهم لكانت قبلتكم إلى بيت المقدس مثلهم.

●● محمد: لقد سبق إلى هذا الاعتراض معاصرو النبى ﷺ من اليهود، وقد رد عليهم القرآن بأن مسألة القبلة لا تهم فى الدين، لأن الدين إنما يمتاز بما يدعو إليه من الأصول الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق الفاضلة، أما القبلة فليست بذات شأن فى الدين، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ثم إن القبلة تتخذ فى الصلاة ليولى الإنسان وجهه فيها إلى ربه والله سبحانه وتعالى ليس له مكان خاص يقصد فيه، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٥).

على أن بيت المقدس لم يبن إلا فى عهد سليمان عليه السلام، ولم يتخذ قبلة إلا من ذلك العهد، فلم يتخذه إبراهيم ولا إسماعيل ولا إسحاق ولا يعقوب ولا غيرهم من الأنبياء الذين كانوا قبل سليمان.

● القس: لاشك أن بيت المقدس أفضل من الكعبة، لأن الذى بناه نبى من أنبياء الله تعالى، أما الكعبة فهى من بيوت العرب الوثنيين، وكانت موطن أصنامهم وأوثانهم، فلا يصح لدين يدعو إلى التوحيد أن يتخذ منها قبلة له، ولا أن يشارك الوثنيين فى تعظيم ما يعظمونه.

●● محمد: إن التاريخ يخالف ما ذكرت أيها القس فى شأن الكعبة، لأنه يثبت أنها من بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد شرع إبراهيم الحج إليها بعد بنائها ودعا الله تعالى أن يجعل مكة بلدًا آمنا، وأن يرزق أهلها من الثمرات، وأن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وبهذا تكون الكعبة أقدم من بيت المقدس، بل تكون أقدم بيت وضع لعبادة الله تعالى،

كما جاء فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

وبهذا تكون الكعبة أفضل من بيت المقدس، لأنها من بناء إبراهيم أب الأنبياء، وهى أول بيت وضع لعبادة الله ولكل قديم حرمته وقداسته، وإذا كان العرب قد شوهوها بأصنامهم وأوثانهم، فإنه لا ذنب عليها فى ذلك، وإنما الذنب على من جعلها موطنا للأصنام والأوثان، وعلى من عبدها أو تقرب بعبادتها إلى الله تعالى، ويجب على من يدعو إلى التوحيد أن يجاهد فى تطهيرها من ذلك، حتى تكون خالصة لعبادة الله كما كانت، وقد قام الإسلام بهذا الجهاد المقدس، حتى أرجعها إلى حظيرة التوحيد، واتخذ منها قبلة للمسلمين، وعرف من فضلها ما لم يعرفه غيره من الأديان.

● القس: نحن لا نسلم لك أيها الفتى أن الكعبة من بناء إبراهيم وابنه إسماعيل، لأنهما لم يصلا إلى مكة، ولم يكن لهما شأن بأهلها، والذى جاء فى التوراة أن إسماعيل وأمه لما خرجا من بيت إبراهيم سكنا فى برية فاران، وهى ببرية سيناء بين مصر وبلاد ثمود، وتبعد عن مكة بمراحل كثيرة.

●● محمد: ذكرت لك أيها القس فيما سبق أنه لا تقوم علينا حجة بما فى التوراة، لأنا لا نسلم صحة كل ما جاء فيها، وهذا يكفينا فى الرد على دعواك أن إسماعيل لم يسكن مكة، ولم يقم هو وأبوه إبراهيم ببناء الكعبة.

على أن الذى جاء فى التوراة أن هاجر وابنها إسماعيل لما خرجا من بيت إبراهيم توجها إلى برية بئر سبع، وكاد ابنها يهلك عطشًا، ثم سكنا فى برية فاران، ولا شك أن برية بئر سبع هى برية سيناء، فتكون برية

فاران بعدها إلى مكة والحجاز، وقد ذكر علماء الجغرافيا من العرب أن برية فاران بين مكة وسيناء، وأن فاران جبال بالحجاز.

وهـذا إلى أن العرب المستعربة معروفون فى التوراة وغيرها بالإسماعيليين، والعرب المستعربة يتفرع نسبهم من عدنان، وهو الجد الأعلى لقريش سكان مكة، وقد جاء فى سفر التكوين من التوراة (وعلى إسماعيل أستجيب، هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جدًا، فيلد اثنى عشر رئيسًا، وأجعله لشعب كبير) فلو لم تكن قريش وسائر العرب المستعربة هم أبناء إسماعيل لكان هذا النص من التوراة غير صحيح، ولتخلف وعد الله فيه وهو لا يخلف وعده، لأنه لا يكون هناك نسل لإسماعيل باركه الله وكثره جدًا.

ولا يكون هناك شعب كبير ينتسب إليه فى جهة من جهات الأرض، وإلا فأين هو ذلك الشعب إذ كان غير العرب المستعربة؟ وفى أى أرض يسكن، ليتحقق وعد الذى لا خلف فيه، وتثبت بشارته التى لا كذب فيها.

وهذا إلى أن لغة العرب المستعربة قريبة جدًا من اللغة العبرية، وهى اللغة الأصلية لإسماعيل عليه السلام، ولا تزال هى اللغة القومية لليهود، وهذا الشبه لا يمكن أن يكون إلا إذا كان هناك صلة نسب بين الفريقين، وقد جاء التاريخ بهذه الصلة، وروى أن هؤلاء العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم، كما أن اليهود ينتسبون إلى إسحاق بن إبراهيم فاتفق فى تأييد هذه الصلة علم التاريخ وعلم اللغة، وكفى بهما دليلاً عليها.

● القس: إذا كان هذا شأن الكعبة عندكم، فلماذا اضطربتم فى اتخاذها قبلة لكم؟ فإنكم اتخذتموها قبلة لكم قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، ثم

عدلتم عنها إلى بيت المقدس فى أوائل إقامتكم بالمدينة، ثم عدتم إليها فكانت قبلتكم فى صلاتكم، وجعلتم حجكم إليها فى أشهركم الحرم.

●● محمد: سأبين لك السَّر فى هذا أيها القس الفاضل، لقد اتخذ الإسلام الكعبة قبلة له فى أول نشأته، لأنها هى القبلة الطبيعية له، ولكل دين قبلة يتوجه أهله إليها فى صلاتهم، ويجتمعون فيها كل سنة عند حجهم، وإن من مصلحة أهل الأديان أن يكون لأهل كل دين قبلة خاصة به. لما بينهم من التنازع والتخاصم، فإذا اجتمعوا فى قبلة واحدة فى حج أو نحوه لم يؤمن تنازعهم وتخاصمهم، ولهذا قال الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٤٨).

وقد مكث المسلمون على هذه القبلة أيام إقامتهم بمكة، فلما هاجروا إلى المدينة اتسع أفق الدعوة الإسلامية، وصاروا بين عرب ويهود ونصارى يراد دعوتهم إلى الإسلام، ويقصد جمعهم على دين واحد ينشر بينهم لواء السلام ويقضى على ما بينهم من حروب، بل ينشر لواء السلام بين الناس جميعًا، ويقضى على الحروب بين الشعوب كافة.

وقد كان اليهود والنصارى بحيث يصعب عليهم جعل الكعبة قبلة لهم، وقد يجعلهم هذا يسيئون فهم الدعوة الإسلامية، ويظنون أنها دعوة سياسية قومية يراد منها مصلحة العرب، وتوجيه الشعوب إلى كعبتهم بالصلاة والحج، لتكون لهم الزعامة عليها، وتروج أسواقهم كل سنة بمن يقصدهم منها كل سنة للحج، فأراد الإسلام أن يزيل من نفوسهم هذا الظن، وأن يضحى بقبلته إلى قبلتهم، ويقطع بهذا كل عذر لهم فى الإحجام عن الإيمان بهذا الدين الجديد، وما كان أهونها تضحية لو كان

لها أثرها فى نفوسهم وصار الناس جميعًا إخوة فى هذا الدين لا عصبية ولا قومية، ولا حرب ولا خصومة، لأن الإسلام لا يهمه أمر القبلة بقدر ما يهمه جمع الناس على دين واحد، ولا يعنيه أن يتوجه الناس إلى الكعبة أو بيت المقدس أو الشرق أو الغرب، كما تعنيه هذه الغاية النبيلة، وكما يهمه هذا المقصد الأسمى، فالجهات كلها لله تعالى، وأينما نولى وجوهنا نجد الله أمامنا، ولكن المهم أن نولى جميعا وجوهنا إليه، وأن يجمعنا دين واحد يوحد بيننا، ويقضى على فرقتنا، ويسوى بين الناس فى الحقوق، وينظر إليهم كلهم نظرة واحدة.

فلما وجد الإسلام أن هذه التضحية لا أثر لها، وأن اليهود والنصارى أصروا على دينهم، عاد إلى قبلته الطبيعية، ليكون له قبلته وحده، ويكون لليهود قبلتهم، ويكون للنصارى قبلتهم، لأن هذا أقرب إلى السلام من جمعهم على قبلة واحدة، وهم أعداء متخاصمون، وأشياع متباغضون، فالبعد بينهم فى هذه الحالة أسلم، وانفراد كل دين بقبلة أدعى للسلم.

المناظرة الثانية عشرة

تأخر محمد عن ميعاد هذه المناظرة ربع ساعة، لأن قطار الترام الذى كان يحمله حدث به خلل، فتطلعت عيون الناس إليه، وجلسوا ينتظرونه كما ينتظر الظمآن الماء، لأن هذه المناظرات أخذت منهم كل مأخذ، وصارت عندهم أهم أمر يطلبونه كل يوم.

فلما حضر محمد أخذ مكانه بجانب القس «ز» بعد أن اعتذر للحاضرين عن هذا التأخر الذى لا يد له فيه، ثم أخذ القس يوجه إليه اعتراضاته على عادته، وأخذ يجيبه عنها.

● القس: ذكرت يا محمد أن الإسلام دين عام لكل الشعوب، وأن كل الشعوب فى نظره سواء، وأن غايته جمع الناس على دين واحد، لا يعلو فيه شعب على شعب، ولا تراعى فيه مصلحة شعب دون شعب، بل ينظر فى سياسته نظرة إنسانية عامة، ولا ينظر فيها نظرة قومية خاصة، كما كانت تنظر الدول القديمة قبله، وكما تنظر الدول الحديثة الآن.

فهل يتفق هذا وما جرى عليه من طبع دولته بالطابع العربي؟ إذ جعل لغتها العربية، وجعل رئيسها عربيًا، لتكون للعرب السيادة فى دولتهم

على غيرهم من الشعوب، ويكون للغتهم السيادة على غيرها من اللغات، وقد جرى الأمر على هذا فى عهد نبيكم، وفى عهد الخلفاء الأربعة بعده (أبى بكر وعمر وعثمان وعلي) وفى عهد بنى أمية، وفى عهد بنى العباس، ولم تتغير دولتكم عن هذا الوضع إلا بعد أن اغتصبت الشعوب الحكم من العرب، فكانت دولة الأتراك العثمانيين، وكان غيرها من الدول التى خرجت على الطابع العربى.

●● محمد: أيها القس الفاضل، إن الإسلام يريد أن يجمع الناس على دين واحد، ولا يريد أن يجمعهم على دولة واحدة، ولا أن يجعل منهم جنسًا واحدًا، ولا من لغاتهم لغة واحدة، فالله هو الذى خلق الناس وجعل منهم قبائل وشعوبا، ولو شاء لجعلهم شعبًا واحدًا، كما قال تعالى فى سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

وقد جاء هذا المعنى صريحا فى سورة الحجرات فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

فلا يهم الإسلام أن تبقى هذه الشعوب والقبائل. ولا أن تبقى لكل شعب خصائصه ومميزاته من لغات وعادات، وإنما يهمه أن تتعارف الشعوب ولا تتناكر، وأن تتحاب ولا تتخاصم، ليعيش الضعيف آمنا بجانب القوى، فلا يطمع فى وطنه، ولا تمتد عينه إلى ماله، ولا يسخره فى قضاء مآربه، ليسعد من شقائه، وليغتنى من فقره.

وهذا قرآننا أمامك أيها القس، لا يمكنك أن تجد فيه آية تدل على

أنه يسعى فى إنشاء دولة عربية، ولا أن تجد فيه آية تدل على أنه يريد أن تعلو كلمة العرب على غيرهم من الشعوب، ولا أن تجد فيه آية تدل على أنه يريد أن تعلو لغتهم على غيرها من اللغات، لأن مثل هذا ليس من رسالته، ولا هو من شأنه، وإنما هو من العصبية التى جاء للقضاء عليها، سواء أكانت بين شعب وشعب، أم كانت بين قبيلة وقبيلة من شعب واحد.

● القس: هل يمكننى أن أفهم من كلامك يا محمد أن الإسلام لا يسعى فى إنشاء دولة؟ فيكون كالنصرانية فى هذا الباب، لا يهمه إلا تهذيب الناس، وأمر الآخرة وحدها.

●● محمد: كلا أيها القس، لو كان الإسلام كالنصرانية فى هذا لم يكن له فائدة بعدها، وإنما أتى الإسلام لتنظيم شئون الدنيا والآخرة، فيكون دينا شاملا كاملا، وتنتهى به رسالة السماء إلى الأرض، فهو يسعى فى إنشاء دولة مثالية تكفل للناس السعادة فى دنياهم وأخراهم، وتحكم بينهم بالعدل، ويشمل عدلها الفقير والغنى، والضعيف والقوى، والمسلم واليهودى والنصرانى، والعربى والفارسى والرومى، ولتكن هذه الدولة بعد هذا دولة واحدة للناس جميعا، أو دولا متعددة بتعدد الشعوب، دولة للعرب، ودولة للفرس، ودولة للروم، ودولة لكل شعب من الشعوب، ولكن يجب أن تكون على نمط هذه الدولة المثالية، ليسود بينها السلام، وتجمعها رابطة الألفة والمحبة.

فلا يمنع الإسلام أن يكون للعرب دولة أو دول متعددة، ولا يمنع أن يكون للفرس دولة أو دول متعددة، ولا يمنع أن يكون للروم دولة أو دول متعددة، ولا يمنع أن يكون لغيرهم من الشعوب دولة أو دول

متعددة، لأنه دين عام لا يمكن أن يتأثر بظهوره بين العرب، فيجعل الدولة فيه لهم، ويحاول فرضهم على غيرهم من الشعوب.

وقد بعث النبى ﷺ كتب الدعوة إلى ملوك عصره، فلم يحاول أن يسلب من واحد منهم ملكا، وإنما دعاه إلى الإسلام لا غير، وأبقى له ملكه إذا أسلم، وقد تعددت كتبه إليهم، فلم تخرج عن هذا المعنى، ولم تطلب من ملوك العرب والفرس والروم والحبشة إلا أن يسلموا، على أن يبقى لكل ملك منهم ملكه، ولا يسلبه الإسلام شيئا منه.

وهذا كتابه إلى الحارث بن أبى شمر:

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد رسول الله إلى الحارث ابن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبق ملكك».

وكان الحارث أميرًا على دمشق من قبل هرقل ملك الروم، فلم يحاول النبى ﷺ أن ينزع منه إمارته، وإنما طلب منه أن يسلم لا غير، وهكذا كانت بقية كتبه إلى أولئك الملوك.

فالدولة المثالية فى الإسلام ذات صبغة عامة، ليست بعربية ولا فارسية ولا رومية ولا غيرها، وليس رئيسها عربيا أو فارسيا أو غيرهما، وإنما هو مسلم من أى شعب كان، وقد قال النبى ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشى أجدع ذو زبيبة». «متفق عليه».

وقد استخلف عمر بن الخطاب بعده صهيبا الرومى ليصلى بالناس إلى أن يختاروا لهم خليفة، فلم يزل يصلى بهم إلى أن اختاروا عثمان بن عفان خليفة لهم، فضرب عمر بهذا مثلا للمسلمين، حتى يكون حكمهم سواء بين الناس، ولا يستأثر به العرب دون غيرهم.

● القس: كيف استأثر العرب بالدولة الإسلامية إلى أن انتزعت منهم؟ وهل كان هذا بأمر دينهم أو من أنفسهم؟

●● محمد: لقد مات النبى ﷺ والإسلام لم ينتشر إلا بين العرب، فكان من الطبيعى أن يختار المسلمون خليفة لهم من بينهم، فاختاروه عربيا بحكم انحصار الإسلام فى العرب على عهدهم. ولم يكن بينهم من غير العرب إلا أفراد يعدون على الأصابع، مثل سلمان الفارسى، وصهيب الرومى، وبلال الحبشى، وما كان العرب ليتركوا مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ليختاروا واحدًا من هؤلاء الأفراد، لأنه لم يكن لهم مثل صلاحيتهم للحكم، ولم يكن عندهم كفاية للنهوض بهذه الدولة الناشئة، وكان العرب لا يزالون حديثى عهد بجاهليتهم، فلم يكن من السهل خضوعهم لمثل سلمان وصهيب وبلال.

ثم توالت الأحداث، واشتبك العرب فى حروب متواصلة مع الفرس والروم وغيرهم، فقضت هذه الحروب بانحصار الدولة الإسلامية فى العرب، وكانت دولة بنى أمية ذات صبغة عربية خالصة، فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ظهر شأنهم فيها، وضعف شأن العرب بظهور شأنهم، ومازال يأخذ فى الضعف حتى سقطت الدولة العباسية، فخلفتها فى الشرق دول إسلامية غير عربية، إلى أن ظهر شأن الدولة العثمانية التركية، فاستولت على أكثر بلاد المسلمين فى الشرق والغرب، ودان المسلمون لها من العرب وغيرهم، لأن الحكم فى الإسلام لا ينحصر فى شعب من الشعوب، وإنما هو لمن يرضاه المسلمون حاكما عليهم من العرب أو غيرهم.

المناظرة الثالثة عشرة

كان المتناظران قد اتفقا بعد انتهاء المناظرة السابقة على أن يكون موضوع هذه المناظرة موقف الإسلام والنصرانية من العلم والفلسفة، فكان هذا سببا فى أن كثيرًا من ذوى الثقافة العالية سبقوا إلى سماع هذه المناظرة، ليعرفوا موقف الدين من العلم والفلسفة عموما، وموقف الإسلام والنصرانية من العلم والفلسفة خصوصًا، وقد ابتدأ القس «ز» الكلام فى هذا الموضوع، فقال:

● القس: لقد وقف الإسلام من العلم والفلسفة موقفا عدائيا، وكان لهذا الموقف أثره فى أن المسلمين لم ينهضوا بالعلم والفلسفة كما نهضت الدول التى قامت قبلهم، وكما نهضت الدول النصرانية فى عصرنا الحاضر، وقد وردت فى القرآن آيات تحث على طلب العلم، ومن هذه الآيات ما ورد فى سورة طه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ولكن المراد من هذا علم الدين، مثل علم الفقه وعلم العقائد ونحوهما.

●● محمد: أحب أن تعلم أولا أيها القس موقف الدين من العلم والفلسفة، فإذا عرفت هذا ذكرت لك موقف الإسلام منهما، وموقف النصرانية منهما.

إن الدين يقصد منه الوصول إلى معرفة الحق بطريق الوحى، والعلم والفلسفة يقصد منهما الوصول إلى معرفة الحق بطريق النظر والعقل، فهما إذن يتفقان فى الغاية ويختلفان فى الوسيلة، واختلافهما فى الوسيلة لا يمكن أن يجعل كلا منهما يقف من الآخر موقف عداء، لأن الغاية الواحدة قد يكون لها وسيلتان تؤديان إليها، وقد يكون لها وسائل متعددة، والوسائل التى تؤدى إلى غاية واحدة تتعاون فى الوصول إليها ولا تتنافر، والدين يعترف بأن العقل وسيلة من وسائل المعرفة، والعلم والفلسفة يعترفان بأن الوحى وسيلة لها أيضًا، وحينئذ لا يصح أن يقف الدين موقف عداء من العلم، ولا يصح أن يقف العلم والفلسفة موقف عداء مع الدين، لا من حيث الغاية، ولا من حيث الوسيلة.

● القس: إنى أوافقك يا محمد على أن هذا يجب أن يكون موقف الدين من العلم والفلسفة، فما هو موقف الإسلام منهما؟

●● محمد: إنى أسجل عليك الآن هذه الموافقة، وستأتى فائدة تسجيلها الآن عند بيان موقف النصرانية من العلم والفلسفة.

فأما موقف الإسلام من العلم والفلسفة فيتوقف أولا على بيان أصل كلمة «فلسفة» فى اللغة اليونانية ويتوقف ثانيا على بيان معناها عند الفلاسفة، فأما أصل كلمة فلسفة فى اللغة اليونانية فهو يتركب من كلمتين: فيلا وسوفيا، ومعنى فيلا إيثار أو محبة، ومعنى سوفيا حكمة، فيكون معنى الكلمة مركبة إيثار الحكمة أو محبة الحكمة، وقد ترجمت

إلى اللغة العربية بعد اختصارها، فصارت إلى كلمة «فلسفة» بمعنى الحكمة، ويقصد منها عند الفلاسفة معرفة حقائق الأشياء بقدر الطاقة البشرية.

وقد نوه القرآن بشأن الحكمة كما نوه بشأن العلم، فقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(البقرة: ٢٦٩).

وكذلك نوه الله بشأن بعض الحكماء فى القرآن، وهو لقمان الحكيم، فعقد سورة فى القرآن باسمه، ونوه فيها بشأن حكمته، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾(لقمان: ١٢، ١٩).

ولا شك أن هذا يدخل فى قسم الأخلاق من الحكم العملية، وهى الحكمة التى يدخل موضوعها فى مقدور الإنسان.

وكذلك ذكر القرآن أن الله وهب يحيى بن زكريا الحكمة فى حال

صباه، فقال تعالى فى سورة مريم: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾(مريم: ١٢).

والحكم هو الحكمة، وكان هذا قبل أن يؤتيه النبوة، لأن النبوة إنما تكون بعد الثلاثين فما فوقها.

وقد آتى الله بعض الأنبياء النبوة والحكمة، فقال تعالى فى سورة النساء: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾(النساء: ٥٤).

ولهذا كله كانت الحكمة من ضمن ما بعث النبى ﷺ لتعليمه، كما قال تعالى فى سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الجمعة: ٢).

وهذه الآية صريحة فى أنه كان مما يدخل فى رسالة النبى ﷺ القضاء على أمية العرب، لتكون منهم أمة متعلمة تقرأ وتكتب، وتعرف علوم الدين والدنيا، لأن تعليمهم الكتاب إشارة إلى علوم الدين، وتعليمهم الحكمة إشارة إلى علوم الدنيا، ولهذا أوتيها يحيى وهو صبى قبل أن يكون نبيًا، وهذا صريح أيضا فى أن علم الحكمة له طريق آخر غير طريق الوحى، وهو طريق النظر والعقل، لأن يحيى أوتيها قبل أن يتصل بالوحى، فلم تكن حكمته قبله بطريقه، وإنما كانت بطريق العقل والنظر.

وبهذا لا يكون موقف الإسلام من العلم والفلسفة موقفا عدائيا، بل تكون الحكمة غايته المطلوبة، وضالته المنشودة، ولهذا ورد فى بعض الآثار: (الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها)، ومعنى هذا أنه يطلبها

من أى شخص كان ولو كان كافرا، وفى أى بلد كان ولو لم يكن من بلاد الإسلام، ومع هذا لا تكون الحكمة علم الدين، لأن علم الدين لا يطلب على هذا النحو، ولا يؤخذ إلا على وجه خاص.

● القس: إذا كان هذا موقف الإسلام من الفلسفة، فلماذا حاربها بعض فقهائكم؟

●● محمد: لقد حارب بعض الفقهاء الفلسفة الخاطئة التى لا تقوم على النظر الصحيح، لأنها لا تؤدى إلى الغاية التى يؤدى إليها الدين، بل تخالفه فى الغاية، وتصير بصاحبها إلى الجهل المركب، فيظن نفسه عالما وهو غير عالم، وهذا شر أنواع الجهل، وقد حارب بعض الفقهاء الفلسفة جهلا بها، وجهلا بحقيقة الإسلام، ومثل هؤلاء الفقهاء لا يصح أن يحتج بهم على ديننا.

● القس: هل يخالف موقف النصرانية من العلم والفلسفة موقف الإسلام منهما؟

●● محمد: نعم يخالف موقف النصرانية من العلم والفلسفة موقف الإسلام منهما، لأنه ليس فى الإسلام ما يخالف بدائه العقول، وليس فيه ما يخالف الفطر السليمة، أما النصرانية فإن عقائدها من التثليث والصلب والفداء تؤخذ بالتسليم، وتستعصى على البحث والنظر، فلا يمكن إلا أن تقف موقف العداء من العلم والفلسفة، لأن الفلسفة تؤمن بالبحث، وتعتمد على النظر.

● القس: هذا الكلام لا يكفى فى بيان موقف النصرانية من العلم والفلسفة، وإنما يكفى فى بيان موقفها منهما نصوص من التوراة أو

الإنجيل تكون صريحة فى ذلك، وتدل على أن موقف النصرانية من العلم والفلسفة موقف عداء، لا موقف وفاق.

●● محمد: لو انتظرت أيها القس الفاضل لذكرت لك هذه النصوص التى تطلبها، وإنى أنقل لك من هذه النصوص ما جاء فى كتاب (أضرار تعليم التوراة والإنجيل) وهو من تأليف تشارلز وطس، وقد نقله من الإنجليزية إلى العربية عبدالوهاب سليم التنير[1].

فقد جاء فى هذا الكتاب أنه جاء فى التوراة «الحكمة هى الأصل فخذوها» ثم جاء فيها «بالحكمة الكثيرة كرب عظيم، ومن يكثر الحكمة يكثر حزنه» ثم ورد فيها أيضا «حكمة العالم جهل» فهذا من العهد القديم.

أما العهد الجديد فقد جاء فيه من رسالة لبولس «لأنه مكتوب: سأبيد حكمة الحكماء، وأرفض فهم الفهماء».

وكذلك جاء فى الإصحاح الثانى من رسالة بولس إلى أهل كولوسى «انظروا ألا يكون أحد بسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم، وليس حسب المسيح».

وليس هناك أقسى من هذه النصوص على العلم والفلسفة، ولا شك أن هذه النصوص هى التى أوحت إلى آباء الكنيسة فى القرون الوسطى إنشاء محاكم التفتيش، وكانت أقسى محاكم عرفها التاريخ، وكم حكمت بالقتل والسجن والتعذيب على من ثبت اشتغاله بالعلم والفلسفة، ومن

(١) عبدالوهاب التنير (١٢٦٨ ـ ١٣٣٧هـ ١٨٥٢ ـ ١٩١٨م) من فضلاء بيروت. ومن آثاره: (الإسلام حافظ الذمم بين الأمم).

حكمت عليه بذلك جاليليو[1] العالم الفلكى، لأنه ذهب إلى أن الشمس مركز العالم لا الأرض.

● القس: لقد ذكرت يا محمد أن بعض رجال الدين عندكم حارب العلم والفلسفة جهلا بهما، فلماذا لا يكون هذا عندنا من جهل زعماء النصرانية فى القرون الوسطى؟

وهاهى ذى أمم النصرانية فى أوروبا وأمريكا تشتغل الآن بالعلم والفلسفة، ولا تجد من زعماء النصرانية من ينكر عليها، أو يحارب المشتغلين منها بالعلم والفلسفة، كما كان يحاربهم فى القرون الوسطى.

●● محمد: لا يمكن أيها القس الفاضل أن يقاس ما قام به زعماء النصرانية بما قام به بعض رجال الدين فى الإسلام، لأنا فى الإسلام أمام نصوص تنوه بشأن الحكمة، وتحث على النظر فيها، لأنها وسيلة من الوسائل التى توصل إلى الحقيقة، فيؤجر فيها المصيب، ويعذر فيها المخطيء، ويجب أن يكون الأمر فيها للإقناع بالدليل، فإذا جاوز بعض رجال الدين فى الإسلام هذا الحد يكونون جاهلين بموقف دينهم من العلم والفلسفة، ولا يمكن أن يؤخذ الإسلام بجهلهم.

أما زعماء المسيحية فى القرون الوسطى فكانوا أمام نصوص من التوراة والإنجيل تحذر من الاشتغال بالحكمة، لأنه يورث المشتغل بها كربا عظيما، ويكثر من حزنه وآلامه، ثم تصف حكمة العالم بأنها جهالة، وتحث على إبادة حكمة الحكماء، وعلى رفض فهم الفهماء، فلا يمكن

(١) جاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م) فلكى إيطالى، يعد واضع أسس العلم التجريبى الحديث فى أوروبا.

مع هذا أن يكون موقفهم من العلم والفلسفة عن جهل بدينهم، ولا أن يكون شأنهم فى هذا كشأن بعض رجال الدين فى الإسلام وموقفهم العدائى منهما.

وأما أمم النصرانية فى عصرنا فلا يمكن أن يحتج بها على موقف النصرانية من العلم والفلسفة، ولا أن يحتج بموقف زعماء المسيحية من اشتغالها بهما، لأنها لم تتمكن من هذا إلا بعد أن غلبتهم على أمرهم، وقضت على نفوذهم وسلطانهم، وحكوماتها الآن حكومات مدنية لا يحتج بعملها فى الدين، ولا يبين موقفها من العلم والفلسفة حقيقة موقف النصرانية منهما، لأنها لا تحسب على النصرانية، أما الإسلام فقد ناصر علوم الفلسفة من ملوكه من يحسب عليه، كالمأمون[1] من العباسيين، ويوسف بن عبدالمؤمن[2] من الموحدين، ولا يصح مع هذا أن يدعى أن المسلمين لم ينهضوا بها كغيرهم.

(١) المأمون سابع خلفاء الدولة العباسية. أنشأ بيت الحكمة. وازدهرت فى عهده الحياة الفكرية والثقافية والترجمة إلى العربية.

(٢) يوسف بن عبدالمؤمن (٥٣٣ ـ ٥٨٠هـ ١١٣٨ ـ ١١٨٤م) ثالث خلفاء دولة الموحدين ـ بمراكش ـ ومن أعظم ملوكها جمع بين الشجاعة والسياسة والحكمة والفلسفة وله فتوحات فى الأندلس وكان ابن رشد الفيلسوف من العلماء الذين استقدمهم عبدالمؤمن إلى بلاطه.

المناظرة الرابعة عشرة

كان موضوع هذه المناظرة بحث مسألة المعاد، وما جاء فى القرآن من الأوصاف الحسية للثواب والعقاب، فلما أخذ محمد والقس «ز» مجلسهما ابتدأ القس فقال:

● القس: يا محمد، نحن نرى أن نعيم الآخرة وعذابها روحيان، وهذا يوافقنا عليه أهل العلم والفلسفة قديما وحديثا، لأن النعيم الروحى هو النعيم الكامل الذى يليق بأمر الآخرة، والنعيم المادى نعيم ناقص لا يعد نعيما لدى أرباب الكمال، ولا يعد فى شىء من السعادة لدى النفوس الفاضلة، وإنما السعادة عندها فى العلم والمعرفة، وفى الوصول إلى جناب الحق الأعلى.

أما القرآن فقد جعل نعيم الآخرة وعذابهما حسيين، فجعل فى الجنة أكلا وشربا، وجعل فيها أنهارا من عسل وخمر، ولا أدرى كيف يحرم الخمر فى الدنيا ويبيحها فى الآخرة؟

وقد ورد هذا الوصف فى سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥).

فما هى هذه الأنهار فى الجنة؟ ومن أين تبتدئ؟ ومن أين تنتهي؟ وما فائدتها فيها؟

وكذلك ورد فى القرآن أن فى الجنة حورا عينا يتمتع بهن أهلها، كما جاء فى سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٧٠، ٧٥).

وكذلك ورد فى القرآن أن فى الجنة مجالس شراب وولدانا يطوفون على الشاربين، كما جاء فى سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ (الإنسان: ١٥، ١٩).

فما مجالس الشرب فى الجنة؟ وما طواف أولئك الولدان بالشراب فيها؟ وهل يليق هذا اللهو بها كما يليق فى الدنيا؟

●● محمد: مهلا أيها القس الفاضل، لقد سلكت مسلكا خطابيا لا يفيد شيئا فى مقام المناظرة، وينهار صرحه أمام النظر الصحيح، والبرهان الذى يعتمد على اليقين، ولا يتأثر بمثل ما ذكرت من الخطابيات.

لقد ذكرت أن نعيم الآخر وعذابها حسيان فى الإسلام لا روحيان، والحقيقة أن النعيم والعذاب فى الإسلام للجسم والروح معا، وأن هذا مذهب جمهور المسلمين، وليس مذهب المسلمين جميعًا، لأن من فلاسفة المسلمين ومتصوفيهم من يرى أن المعاد روحانى لا جسمانى، وأن النعيم

والثواب فى الآخرة للروح لا للجسم، ويرى أن الأوصاف الحسية التى وصف القرآن بها نعيم الآخرة وعذابها يقصد بها التمثيل، لأن جمهور الناس لا يصل إدراكه إلى نعيم أو عذاب روحى، فمثل له هذا التمثيل الحسى.

وجمهور المسلمين لا يرون مانعًا عقليا من أن يكون نعيم الآخرة وعذابها للروح والجسم، ولكنهم مع هذا يرون أن النعيم الروحى أجل شأنا، وأرفع قدرا، كما قال تعالى فى سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

فجعل رضوان الله وهو من أمر الروح أكبر مما قبله من النعيم الجسمانى، وهذا هو الذى يليق بدين سلك مسلك الاعتدال بين مطالب الروح والجسم، ولم يغلب مطالب الروح على مطالب الجسم كما فعلت النصرانية، لأنها ديانة زهد وتقشف ورهبانية، فلما سلكت هذا المسلك فى الدنيا حملت عليه أمر الآخرة، وجعلت الروح كل شىء فى الإنسان دنيا وأخرى، وهذا خروج عن حد الاعتدال، والخروج عن حد الاعتدال غير محمود.

● القس: هل تنكر أيها الفتى أن السعادة الحقيقية هى السعادة الروحية؟

●● محمد: الذى أراه أيها القس الفاضل أن السعادة الروحية هى السعادة الكاملة، ولا أرى ما تراه من أنها هى السعادة الحقيقية، لأن السعادة توجد فى غيرها، ولكنها سعادة ناقصة لا كاملة، ومن الناس

من لا يصل إدراكه فى الدنيا إلى السعادة الروحية، فتكون لذته فيما يتعلق بقوتى الشهوة والغضب لا فيما يتعلق بالقوة الناطقة، ومثل هذا لا يمتنع عقلا أن يكون موجودا فى الآخرة، لأن النفوس تتفاوت فيها كما تتفاوت فى الدنيا، وكل نفس منها تمثل فى الآخرة حال صاحبها وتطلب فيها ما كانت تطلبه فى دنيانا، ولو كانت كل النفوس فى الآخرة على حال أكملها لصح أن يكون نعيمها روحيا، ولكن هذا غير صحيح وإنما الصحيح أن كل نفس تبعث على حالها فى دنياها، لتلقى نعيمها أو عذابها على قدر حالها، وتجد من النعيم ما تطلبه لجسمها أو روحها، لأنها إذا لم تجد من ذلك ما تطلبه تألمت لحرمانها منه، والجنة دار نعيم لا ألم فيها ولا حرمان، ولهذا جعل الله فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، حتى تجد كل نفس ما تشتهيه، ولا يدركها ألم بالحرمان منه.

● القس: إن النفس قد تشتهى ما لا يجوز لها أن تشتهيه، فهل تجده فى الجنة إذا اشتهته؟

●● محمد: إن النفس التى تشتهى ما لا يجوز لها تكون فى النار لا فى الجنة، ولا يوجد فى الجنة إلا النفوس الطيبة التى لا تشتهى إلا ما يجوز لها.

● القس: فكيف تكون فى الجنة مع هذا مجالس خمر؟

●● محمد: كلا أيها القس الفاضل، ليس فى الجنة مجالس خمر وليس فيها مجالس لهو، وليست خمر الجنة إلا خمرا بالاسم، لأنها تشبه خمر الدنيا فى اللون، أو فى كونها مثلها من عصير العنب، ولكنها لا تسكر كما تسكر خمر الدنيا، وإنما ذمت خمر الدنيا لإسكارها لا للونها ولا لكونها من عصير العنب وإذا لم يكن فى خمر الجنة إسكار لم يكن فيها إثم، ولم يكن

فى مجالسها لهو، وقد قال الله تعالى فى سورة الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (الواقعة: ١٧، ١٩).

أى لا تصدع رءوسهم من شربها كما تصدع الرءوس من خمر الدنيا، ومعنى لا ينزفون أنهم لا ينفد شرابهم، وقد قرئ بفتح الزاى، فيكون معناه أنهم لا يغلبون على عقولهم ولا يسكرون منها، وعلى هذا يكون تأكيدًا لمعنى ما قبله، أو يكون قوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ (الواقعة: ١٩).

بمعنى لا يتفرقون عنها، وقد ورد هذا أيضا فى سورة الطور: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الطور: ٢٢-٢٤).

على أنك أيها القس الفاضل تبالغ فى شأن خمر الجنة التى لا إثم فيها، وتنسى أنكم لا تحرمون خمر الدنيا، وهى الإثم كل الإثم، بل تبيحونها لعامتكم وخاصتكم ورؤساء دينكم، فلا يشترط بولس فى الشمامسة إلا أن يكونوا غير مولعين بالخمر الكثير، كما قال فى الإصحاح الثالث من رسالته الأولى إلى تيمو ثاوس «كذلك يجب أن يكون الشمامسة ذوى وقار لا ذوى لسانين غير مولعين بالخمر الكثير ولا طامعين بالربح القبيح» ثم يقول بعد هذا فى الإصحاح الخامس من هذه الرسالة «لا تكن شَّراب ماء بل استعمل خمرا قليلا من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة».

وجاء أيضا فى الإصحاح الثانى من إنجيل يوحنا «وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الخليل وكانت أم يسوع هناك، ودعى أيضا يسوع

وتلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر. قال لها يسوع: مالى ولك يامرأة، لم تأت ساعتى بعد».

وجاء أيضا فى الإصحاح السابع من إنجيل لوقا: «لأنه جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزا ولا يشرب خمرا فتقولون به شيطان، جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة».

ثم قال للقس: ولا يقتصر الأمر عندكم فى الخمر على هذا، بل ورد فى إنجيل متى أنكم ستشربونها أيضا فى ملكوت الله، خمرا مطلقة لم تقيد بما قيدت به خمر الجنة فى الإسلام، من أنها لا لغو فيها ولا تأثيم، وأن شاربيها لا يصدعون عنها ولا ينزفون.

وهذا هو ما جاء من ذلك فى الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى «وأقول لكم إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا فى ملكوت أبى».

وهذا صريح فى أنه سيكون فى الجنة شرب خمر، فكيف تذهبون مع هذا إلى أن نعيمها روحى لا جسماني؟ وكيف تتكلم أيها القس عن شرب الخمر عندنا فى الجنة بما سبق من أسلوبك الساخر؟ مع أنها ليست كخمر جنتكم، وإنما هى خمر مجازا لا حقيقة.

وبهذا انتهت المناظرة الرابعة عشرة، فانصرف الحاضرون على أن يحضروا غدًا لسماع المناظرة الخامسة عشرة.

المناظرة الخامسة عشرة

كان موضوع هذه المناظرة قصة زواج النبى ﷺ بزينب بنت جحش، وقد أراد محمد أن يحيل القس «ز» فيها على بعض الكتب التى تناولتها بالبحث، وبينت فيها وجه الصواب، فأخبره القس بأنه اطلع على ما كتب فى هذه القصة، ولم يجد فيها ما يقتنع به، وأصر على أن تكون هذه المناظرة فى هذا الموضوع، وقد ابتدأ فيها فقال:

● القس: يذكر الرواة عندكم أن زينب بنت جحش تزوجت زيد بن حارثة، وكان نبيكم قد تبناه، فدخل عليها ذات يوم لحاجة، فأبصرها فى درع وخمار، وكانت بيضاء جميلة، ومن أتم نساء قريش، فوقعت فى نفسه، وأعجبه حسنها، فقال: سبحان الله مقلب القلوب. ثم انصرف.

فلما جاء زيد ذكرت زينب له ما سمعت من نبيكم، ففطن له وعرف مرماه، وألقى فى نفسه كراهيتها فى الوقت، فذهب إلى نبيكم فذكر له أنه يريد فراق زينب، فقال له: مالك؟ أرابك منها شىء؟ فقال: لا، ما رأيت منها إلا خيرًا، ولكنها تتعظم علىّ بشرفها، وتؤذينى بلسانها، فقال له: أمسك عليك زوجك، واتق الله فى أمرها. ولكنه طلقها بعد هذا، لما فطن له من أن نبيكم يريدها. وقد نزلت فى هذا آية سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ

تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ (الأحزاب:٣٧).

●● محمد: أيها القس الفاضل، إن قرآننا هو أصل الأصول عندنا، وما عداه من الأحاديث والأخبار فى ديننا لا تقبل منه إلا ما وافق هذا القرآن، وما لم يوافقه منها فهو مردود غير مقبول. وكل دين من الأديان قد بلى بقوم من الجهال الذين يفهمونه على غير وجهه، أو من المنافقين الذين يضعون فيه الأخبار الكاذبة، ويروجونها على أولئك الجهال، فتروج عندهم، ويأخذونها على أنها من الدين، مع أن الدين يبرأ منها، ومن هذا ذلك الخبر الذى يذكره بعض الرواة فى سبب نزول تلك الآية.

● القس: وما هو إذن سبب نزول تلك الآية يا محمد؟

●● محمد: إن قصة زواج النبى ﷺ بزينب بنت جحش لا تبتدئ من طلاق زيد لها، وإنما تبتدئ من زواجه بها، وهذا هو الذى سيوصلنا إلى الحقيقة فى أمرها، ويظهر كذب ذلك الخبر الذى ذكرته فى سبب نزول تلك الآية السابقة.

● القس: كيف هذا يا محمد؟

●● محمد: كانت زينب بنت أميمة بنت عبدالمطلب جد النبى ﷺ، فخطبها لمولاه زيد بن حارثة، وكان قد اشتراه فى الجاهلية، ثم أعتقه وتبناه، فلما خطبها له رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت له: أنا ابنة عمتك يا رسول الله، فلا أرضاه

لنفسى. وكذلك كره أخوها عبدالله بن جحش. فنزل فى هذا قوله تعالى فى سورة الأحزاب قبل تلك الآية السابقة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

فما شأن زيد وزينب حتى يكون الله ورسوله هما اللذان يقضيان بزواجهما؟ فإذا كان هذا لتشريفهما فقد كان فى المؤمنين والمؤمنات من كان أفضل منهما، ومن كان أولى بهذا التشريف.

ولماذا يقضى الله ورسوله بزواج زينب لزيد وهى كارهة لزواجها به؟ والزواج فى الإسلام إنما يكون عن رضا واختيار من الزوجين، لأنه عقد من العقود بين شخصين، ومن شرط صحة العقود أن تكون عن رضا واختيار.

ولماذا يزوج النبى ﷺ فى هذه المرة ـ زيدا ـ زينب بنت عمته أميمة؟ وهى تعلو عليه بنسبها وشرفها فى قريش، وقد زوجه فى المرة الأولى مولاته أم أيمن، وهى التى ولدت له ابنه أسامة.

● القس: هذه أسئلة لها قيمتها فى هذا الموضوع يا محمد، فما هو جوابك عنها؟

●● محمد: الحقيقة أيها القس أن زينب لم تكن تختار لزيد فى زواجها به، وإنما كانت تختار لغيره.

● القس: هذا أمر غير مفهوم يا محمد، وما عهدنا إلا أن الزوجة تختار لزوجها.

●● محمد: الحقيقة أن زينب كانت تراد من هذا الوقت للنبى ﷺ، وأنها اختيرت هذا الاختيار لتكون زوجا له بعد زيد.

● القس: إذا كانت زينب تراد فى هذا الاختيار لنبيكم لا لزيد، فلماذا لم يتزوجها من أول الأمر؟ وأى حكمة فى تزويجها لزيد أولا؟

●● محمد: الحكمة أن الله كان يريد إبطال عادة التبنى فى زيد وغيره ممن كان العرب يتبنونهم فيرثونهم كما يرثهم أبناء الصلب، وكل أسرة لها حقها فى مال المورث، فلا يصح له أن يأتى بأجنبى عنها ليتخذه ابنا له، ويحرمها من ميراثه، فلا ترثه كما يرثها، وهذا ظلم ظاهر، وكذب غير مقبول فى النسب، كما قال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤، ٥).

ولما كانت هذه العادة من العادات المستحكمة فى العرب، أراد النبى ﷺ أن يكون هو البادئ بإبطالها، فاختار زينب لزيد فى الظاهر، وهو يختارها لنفسه فى الباطن، لأنه كان يعلم أنها ستصير زوجا له من يوم خطبتها لزيد، ولهذا زوجها له وهى غير راغبة فيه. ونزل القرآن بزواجها له تمهيدًا لإبطال تلك العادة، واختيرت من ذلك النسب القريب من نسب النبى ﷺ.

فلما تزوجها زيد لم تحسن عشرته، فكان يشكوها للنبى ﷺ فيأمره بإمساكها، وهو يعلم أنها لم تزوج لزيد إلا ليتزوجها من بعده، ويبطل بتزوجها تلك العادة، لأنه لا يجوز للأب زواج امرأة ابنه، فإذا تزوجها بعد زيد أبطل بهذا بنوته له، وإنما كان يأمره بإمساكها

لأنه كان يخشى كلام المنافقين ونحوهم، ويخاف تشنيعهم عليه فى تزوجه امرأة متبناه.

● القس: كيف يخاف هذا وهو يعلم أنه أمر الله؟

●● محمد: هذه طبيعة بشرية لا يمكنه أن يغالبها، وهذا إلى أن زيدا كان لا يعلم ذلك التدبير، فكان من الواجب أن يجرى تشريع الطلاق معه على عادته، وأن ينصحه بإمساكها إلى أن ييأس من صلاح حالها معه.

● القس: إذا كان هذا هو الأصل فى قصة زواج زينب فماذا يفيد فى إبطال ذلك الخبر السابق؟

●● محمد: أمر هذا ظاهر أيها القس الفاضل، لأنه إذا كان يعلم أنها لم تتزوج زيدًا إلا ليتزوجها بعده، لم يكن هناك معنى لذلك الخبر، لأنه يفيد أنه لم يفكر فى تزوجها إلا بعد أن نظر إليها فوقعت فى قلبه.

ولقد كان النبى ﷺ يرى زينب قبل أن يتزوجها زيد، لأنها بنت عمته كما سبق، فلم تكن تلك الرؤية التى يقال إنها أوقعتها فى قلبه أول رؤيته لها، وقد أرادت زينب النبى ﷺ لنفسها حين خطبها لزيد، وفى هذا من الإغراء على الزواج ما هو أكثر من تلك النظرة، فلم يتأثر بإرادتها له، لأنه يفوت التدبير الذى يراد من تزوجها أولا بزيد.

● القس: هذا يا محمد فهم جديد منك لهذه القصة، ولم أره لأحد قبلك من علمائكم.

●● محمد: أيها القس الفاضل، كم ترك الأول للآخر، وكم فى ديننا من أسرار عظيمة ستكتشفها العقول التى لا تجمد على القديم، ولا ترضى أن تعيش أسيرة التقليد.

على أنى لو سلمت لك أيها القس صحة ذلك الخبر الباطل، لكنتم معشر النصارى آخر من يصح له أن يطعن به على النبى ﷺ، لأنكم تنسبون إلى أنبيائكم ما هو أعظم من ذلك وأخطر، ولم يصل الأمر فى ذلك الخبر إلا أنه حصل نظر فميل قلب فتهيئة من الله للزواج، فأين هذا مما تنسبونه إلى داود عليه السلام، من أنه نظر إلى امرأة أوريا فأحبها، فلم يزل يعرض أوريا فى مواضع الخطر فى حروبه، حتى قتل فيها وتهيأ له أن يتزوجها بعده، ونحن ننزه داود عن مثل هذا، وننزه غيره من الأنبياء الذين تنسبون إليهم مثل هذا فى توراتكم وغيرها من كتبكم، كما ننزه محمدا ﷺ.

وهنا انتهت المناظرة الخامسة عشرة، فانصرف الحاضرون ليعودوا غدا إلى سماع المناظرة السادسة عشرة.

المناظرة السادسة عشرة

كان موضوع هذه المناظرة ما كان من هجر النبى ﷺ نساءه شهرا، وهى من المسائل التى اضطرب فيها المفسرون وعلماء السيرة، وذكروا فيها من الأخبار ما هيأ لهؤلاء المبشرين المسيحيين أن يطعنوا به فى النبى ﷺ، وقد ابتدأ القس (ز) المناظرة فى هذا الموضوع فقال:

● القس: لعلك اطلعت يا محمد على ما يذكره المفسرون وعلماء السيرة فى بيان سبب نزول هذه الآيات فى أول سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحرير: ١، ٥).

فقد ذكر بعضهم فى سبب نزول هذه الآيات أن نبيكم كان إذا صلى

العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن، فدخل على زينب بنت جحش فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فغارت عائشة بنت أبى بكر منها، فسألت عن سبب احتباسه عندها فقيل لها: أهدت لها امرأة من قومها عكة[1] من عسل، فسقت النبى ﷺ منه شربة فاتفقت هى وحفصة على أنه إذا دخل عليهما ذكرتا له أنهما يجدان منه ريح مغافير، وهو صمغ حلو كالناطف له رائحة كريهة ينضحه شجر العرفط، وهو من شجرة العضاه، والعضاه كل شجر له شوك، فلما دخل عليهما ذكرتا له ذلك، فأخبرهما بأنه شرب عند زينب شربة عسل فقالتا له: أكلت نحله العرفط، فحرم العسل على نفسه وأخبر حفصة بذلك، وأمرها أن تكتمه فعاتبه الله على هذا بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم: ١).

وذكر بعض آخر فى سبب ذلك أن حفصة استأذنت نبيكم فى زيارة أبيها عمر بن الخطاب، وكان هذا فى يومها، لأنه كان يقسم بين نسائه، فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة وخلا بها، فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقا فجلست تبكى حتى خرج ووجهه يقطر عرقا فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: إنما أذنت لى من أجل هذا، أدخلت أمتك بيتى، ووقعت عليها فى يومى وعلى فراشى، فقال لها: أليس هى جاريتى قد أحلها الله لي؟ اسكتى فهى على حرام، فلا تخبرى بهذا امرأة منهن. فهذا هو ما عوتب على تحريمه على نفسه.

فكيف يحرم نبيكم العسل على نفسه لخبر كاذب ألقى إليه؟ وكيف يبنى أحكامه على هذا الكذب؟ وكيف ينزل قرآن فى هذا الخبر الذى لا قيمة له؟

---

(١) العكة: آنية السمن أصغر من القربة.

وكيف يحرم نبيكم مارية على نفسه؟ وهو الذى بعث إليها، ولم تكن تملك أن تمنع نفسها منه، وكيف يفعل هذا فى يوم حفصة؟ وهو من حقها وحدها، ولا يصح له أن يعطى منه شيئا لغيرها إلا بإذنها.

وكيف يصل به هذا الأمر الصغير إلى أن يهجرهن شهرا كاملا؟ وإلى أن يهددهن بالطلاق ليستبدل بهن أزواجا خيرا منهن؟

وكيف يشغل المسلمين بهذا الأمر؟ وهو سر من أسرار بيته، وما كان يصح أن يتعدى علمه نساءه.

●● محمد: سأمضى أيها القس الفاضل فى المناظرة معك على تسليم صحة ذينك الخبرين، مع أن كلا منهما يخالف الآخر، وهذا يمكننا معه أن نكون فى حل من أمرهما ولكنى سأمضى أولا فى المناظرة معك على تسليم صحتهما، ثم أبين لك بعد هذا ما يجب أن يكون هو السبب لنزول تلك الآيات.

نحن إذا سلمنا صحة ذينك الخبرين لم نجد فيهما أكثر من أن النبى ﷺ أخطأ بتحريم العسل على نفسه فى الخبر الأول، وهو خطأ لا يصل إلى تحريم واجب أو تحليل حرام، وإنما هو مباح حرمه على نفسه. وقد أعطى الله لكل شخص الحرية فى كل مباح، يأخذه إذا شاء، ويمنع نفسه منه إذا شاء، فإذا فعل هذا لغير سبب صحيح لا يعدو أمره أن يكون قد ارتكب خلاف الأولى، ونحن لا نمنع أن يرتكب النبى ﷺ مثل هذا، وله حكمته الظاهرة من منع الغلو فى أمره، لأنه يقوم دليلا قاطعًا على أنه بشر يصيب ويخطيء، فلا نغلو فى أمره كما غلوتم فى أمر نبيكم، ورفعتموه من مرتبة البشرية إلى مرتبة الألوهية، وإذا تحدث القرآن عن هذا وأشباهه فى القرآن يكون له هذه الفائدة الكبيرة، ويكون له هذه الحكمة العظيمة.

وكذلك الأمر فى الخبر الثانى، فليس فيه إلا أن النبى ﷺ ظن أن حفصة ستغيب فى قضاء حاجتها، وأن سينتهى من مارية قبل أن تحضر إليه، فلا تعلم شيئًا مما حصل، وهى إنما تستحق حقها منه فى يومها مادامت قائمة فى بيت الزوجية، فإذا خرجت منه كان فى حل من أمر نفسه، وليس لامرأة أن تتحكم فى أمر زوجها حاضرة وغائبة، صحيحة ومريضة، راضية وغير راضية، فلم يرتكب من هذ إلا ما هو خلاف الأولى. وله أيضًا حكمته السابقة، على أن هذا الخبر مطعون فيه، وقد جاء فى تفسير الخازن[1] أن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح[2].

ثم قال للقس: ولا أدرى كيف تأخذون مثل هذه الأمور على النبى ﷺ؟ وأمرها لا يخرج عن ارتكاب خلاف الأولى، وله تلك الحكمة السابقة، وأنتم تنسبون إلى الأنبياء السابقين من الكبائر ما تنسبون، ومن هذا ما جاء فى التوراة عن لوط عليه السلام، فقد جاء فيها أن ابنتيه سقتاه خمرا حتى ثمل ليلتين متتاليتين، ليقرب كل واحدة منهما ليلة، كيما يخصبها فتلد، مخافة فناء آل لوط، بعد أن أنزل الله بهم من الجزاء ما أنزل.

ونحن ننزه لوطًا عليه السلام وغيره من الأنبياء عن أمثال هذه الكبائر، وننزه كتب الله تعالى عن حكاية مثل هذا الإثم، لأنها تشيع الفاحشة فى الناس، وتجرئهم على ارتكاب القبائح، ومع هذا لا ننزه الأنبياء عن ارتكاب خلاف الأولى، لأن أمره هين عند الله، وليس فيه من الفساد ما يخشى أمره على الناس، ولهذا جعل أمره فى الآخرة عفوًا

(١) الخازن ـ علاء الدين على (٧٤١هـ ١٣٤١م) فقيه شافعى، وعالم بالتفسير والحديث. وعنوان تفسيره: (لباب التأويل فى معانى التنزيل).

(٢) انظر تفسير الخازن فى سورة التحريم.

لا ثواب ولا عقاب، ولجوازه على الأنبياء فائدته السابقة من دلالته على بشريتهم، حتى لا يغالى أتباعهم فى تعظيمهم، ولا يصل الأمر بالناس إلى تأليههم.

● القس: ذكرت يا محمد أن كلا من الخبرين السابقين فى بيان سبب نزول تلك الآيات يخالف الآخر، وأن هذا يجعلك فى حل من عدم التقيد بهما فى بيان سبب نزولها، فهل عندك أمر آخر فى بيان سبب نزول تلك الآيات؟

●● محمد: نعم عندى سبب آخر لنزول تلك الآيات، فقد وردت آيات أخرى من سورة الأحزاب فى هجر النبى ﷺ نساءه، وفيها بيان سبب هجره لهن، وإذا ذكر القرآن سبب هذا الهجر لم نكن فى حاجة إلى ما ذكر فى ذينك الخبرين السابقين. وهذا هو ما ورد فى ذلك من سورة الأحزاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا

يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٣٤).

فهذه الآيات تدل على أن نساء النبى ﷺ سألنه من عرض الدنيا شيئا، وطلبن منه زيادة فى النفقة، وكان رجال قريش يغلبون نساءهم فى الجاهلية، فلما هاجروا إلى المدينة وجدوا أهلها تغلبهم نساؤهم، فطفق نساء المهاجرين يتعلمن من نساء أهل المدينة، حتى أخذن يراجعن أزواجهن إذا غضبوا عليهن، وقد ساعدهن الإسلام على هذا بما رفع من شأنهن، وبما زاد من حقوقهن، ولم يزل هذا أمرهن إلى أن ظهر أمر النبى ﷺ، وفتح الله له الفتوح، وأقبلت الدنيا على المسلمين، فأراد نساء النبى ﷺ أن يكون شأنهن فى ذلك شأن أزواج الرؤساء من الملوك والأمراء، وتطلعت نفوسهن إلى ما أقبل على المسلمين من أمر الدنيا، فطلبن ما طلبن من عرضها، وطلبن ما طلبن من زيادة فى نفقاتهن، ليأخذن من زينة الدنيا ما يأخذن، ويتبرجن كما كان النساء يتبرجن فى الجاهلية الأولى، فغضب النبى ﷺ عليهن، لأنه لا يملك مما فى يده شيئا، وإنما هى أموال المسلمين ينفقها فى مصالحهم، ولا يجوز له أن ينفقها فيما تبغى نساؤه من أمر الدنيا وزينتها، ولأنه لا يريد لنسائه ولا لنساء المسلمين أن يتعلقن بالدنيا إلى هذا الحد، ولا أن يتبرجن فيها ذلك التبرج.

فلما غضب عليهن وراجعنه فى ذلك المرة بعد المرة هجرهن، وأقسم لا يقربهن شهرا، واعتزلهن فى مشربة[1] لا يقربهن، وكان غلامه رباح يجلس على أُسْكُفتها[2] فلا يدخل عليه أحد إلا بإذنه.

(١) المشربة بفتح الراء وضمها الغرفة، وكان يرقى إليها على جذع من نخل.
(٢) الأسكفة: العتبة.

فهذا هو تحريمه ما أحل الله له من نسائه، وقد عاتبه على هذا لأنه قسا به على نفسه قسوة شديدة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ (التحريم: ١).

وكان قد فعل ذلك معهن ليحملهن على الرضا بنفقاتهن، وعلى ترك التطلع إلى عرض الدنيا، وهذا معنى قوله: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ (التحريم: ١).

ولعله أسر إلى بعض أزواجه ما يكون من الفتن بين المسلمين بسبب التطلع إلى الدنيا، وهذا قوله: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ (التحريم: ٣).

وكانت عائشة بنت أبى بكر الصديق وحفصة بنت عمر بن الخطاب هما اللتان أثارتا هذه الحركة بين أزواج النبى ﷺ لمكان أبويهما منه، ولما كان لعائشة من الدالة عليه من بين نسائه، وهذا قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ (التحريم: ٤).

فلم يكن الأمر فى هذا أمر عسل حرمه على نفسه، ولا أمر مارية إن صح أمرها، ولا أمر غيرة نسائه عليه، وإنما كان أكبر من هذا كله، لأنه كان أمر نسائه يردن أن يوسع لهن فى أموال المسلمين، ويردن أن ينحرفن بالإسلام عن طريق الاعتدال فى أمر الدنيا حين أخذت تقبل عليهن، والإسلام إذا أمر بالاعتدال فى أمر الدنيا كان أمره تشريعا عاما، يأخذ به المسلمون فى كل زمان، ويعملون به فى كل الأحوال، ولو أقبلت عليهم الدنيا كل الإقبال، ومثل هذا يستحق أن ينزل فيه قرآن، وأن يكون درسا قرآنيا يقرؤه الناس فى كل زمان.

فلما انقضى الشهر بدأ النبى ﷺ بعائشة فقال لها: (إنى ذاكر لك أمرا، فلا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩).

حتى بلغ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾.

فقالت: أفى هذا أستأمر أبوى؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

ثم فعل مثل هذا مع غيرها فأجبنه بمثل ما أجابته.

فكان هذا درسا عظيما حفظ الإسلام من الانزلاق فى طريق الترف الذى قتل الأمم قبله، لأنه يجر إلى الفسق والفجور، ويؤدى إلى نشر الفقر والمرض بين الأمم، وهما من أهم عوامل فنائها، ولهذا قال الله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦).

وبهذا انتهت هذه المناظرة، فانصرف الحاضرون على أن يعودوا غدًا لسماع المناظرة السابعة عشرة.

المناظرة السابعة عشرة

فكر القس (ز) فى أمره مع فتانا محمد، وفى أنه إلى هذه المناظرة لم يمكنه أن يتغلب عليه فى كل ما أورده عليه من الاعتراضات، مع أنه هو وأمثاله من المبشرين المسيحيين قد أفنوا أعمارهم فى جمعها من هنا وهناك، وكانوا يبنون عليها ما يبنون من تشكيك المسلمين فى دينهم، ليتمكنوا من جذبهم إلى نصرانيتهم، فأراد أن يأتى محمد من ناحية ظن أنه يتغلب فيها عليه، فقال له:

● القس: أريد أن أسألك يا محمد: هل الخداع يعد من الرذائل أو يعد من الفضائل؟

●● محمد: الخداع فى ذاته من الرذائل، وهذا سؤال جوابه ظاهر، فما تريد منه أيها القس الفاضل؟

● القس: لقد ذكرت يا محمد فيما سبق أن دينكم لم يقم بالسيف، ولكنه إذا كان لم يقم بالسيف فإنه كان لا يتحرج من الخداع فى نجاح أمره، فيستبيح من هذه الرذيلة ما يستبيحه أهل الدنيا فى نجاح أمورهم، والدين يجب أن يتم أمره بالصراحة، وهو أكبر من أن يحتاج إلى مثل هذه

الوسيلة، وقد بلغ من استباحتكم للخداع أن استبحتم فى قرآنكم وصف الله تعالى به، وقد ورد فى هذا من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢).

وقد ذهبتم فى هذا إلى أن وصفتم الله تعالى بالمكر فى قرآنكم، كما جاء فى سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

محمد: ليس ما ورد فى الآيتين من وصف الله بالخداع والمكر، وإنما هو نوع من البديع يقال له المشاكلة، وهو ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته، فمعنى قوله فى الآية الأولى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢).

أنه مجازيهم على خداعهم، ومعنى قوله فى الآية الثانية: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾.

أنه يجازيهم على مكرهم، وقد أطلق على الأول لفظ الخداع وعلى الثانى لفظ المكر ليشاكل كل منهما ما قبله والمشاكلة من محسنات الكلام، وهى من الأساليب المقبولة فى اللغة العربية.

● القس: ولكن نبيكم قال: الحرب خدعة وكان يخادع أولئك المنافقين كما كانوا يخادعونه.

●● محمد: إن الحرب يجوز فيها ما لا يجوز فى السلم، يجوز فيها قتل النفس، والاستيلاء على مال الناس من غير مقابل، والخداع أهون أسلحتها، وقد يكون سببا فى حقن دماء المتحاربين، كما حصل فى غزوة الأحزاب، فإنه أمكن بالخداع فيها صرف المشركين عن حصار المدينة، فحقن به دماء أهلها، كما حقن دماء أولئك المشركين، ورُب شر يأتى

بالخير، كالكذب يصلح الرجل به بين متخاصمين، أو يدفع به عن نفسه، والشر الذى يأتى بالخير لا يكون شرا مذموما، بل يأخذ حظه من القبول بقدر ما يوصل إليه، وفى هذا تختلف سياسة الإسلام عن سياسة مكيافيلى[1] الإيطالى، فالغاية عند هذا السياسى تبرر الوسيلة، ولو لم تكن الغاية فى شىء من الحق، أما الإسلام فلا تقبل الوسيلة عنده إلا إذا كانت غايتها شريفة.

وماذا يضير الإسلام إذا أجاز استعمال الخداع فى الحرب وحرمه فى السلم؟ فأوجب على النبى ﷺ إذا أراد نبذ عهد قوم أن يعلنهم بنبذه وحرم عليه أن يحاربهم قبل هذا الإعلان، فقال فى سورة الأنفال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٥٨).

وماذا يضيره إذا أجاز استعمال الخداع فى الحرب؟ وقد أوجب على النبى ﷺ أن يجنح للسلم إذا جنح أعداؤه لها، ولو كانوا يريدون بها خداعه فقال فى سورة الأنفال: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦١، ٦٢).

أما المنافقون فإن النبى ﷺ لم يكن يخادعهم كما كانوا يخادعونه، وإنما كان يقبل منهم خداعهم ونفاقهم فى إسلامهم، فيكتفى بما يظهرونه من الإسلام، ولا يؤاخذهم فى الدنيا بما يبطنونه من الكفر، ولكنه كان

(١) مكيافيلى (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م) سياسى وأديب إيطالى يعد فيلسوف البراجماتية والنفعية السياسية ولقد صاغ مذهبه هذا فى كتابه (الأمير) وله ـ أيضا ـ (فن الحرب).

يذمهم أقبح ذم، ويجعل عقابهم فى الآخرة أشد عقاب، كما قال تعالى فى سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٥، ١٤٦).

وقد كان يذمهم ذما عامًا باسم المنافقين، فلا يصرح بأسمائهم ولا يذم منهم شيئا آخر غير نفاقهم، وكان يكتفى بهذا فى زجرهم عن النفاق، ولا يتجسس على عقائدهم ليعاقبهم على ما يسرونه فى أنفسهم، لأنه لا يقر التجسس على العقائد، وليس فيه محاكم تفتيش كما كان فى النصرانية، ولا شك أن معاملة الإسلام للمنافقين على هذا النحو ليس من الخداع فى شىء، وإنما هى معاملة كريمة تليق بسماحته، وترفع بين الأديان قدره.

● القس: كيف تدعى يا محمد أن الإسلام لا يجيز أخذ الناس بالخداع فى السلم، وقد كان نبيكم يحرض أتباعه على اغتيال بعض الناس فى بيوتهم، فكانوا يأخذونهم بالخداع والحيلة حتى يأمنوا لهم، فإذا أمنوا جانبهم اغتالوهم.

ومن هذا ما جرى لكعب بن الأشرف اليهودى، فقد حرض نبيكم محمد بن مسلمة على اغتياله، فاختار محمد نفرا يساعدونه، وكان كعب يقيم فى حصن منيع خارج المدينة، فذهبوا إلى نبيكم قبل أن يمضوا إلى اغتياله، فقالوا له: يا رسول الله، لابد لنا أن نقول. فقال لهم: قولوا ما بدا لكم.

فاستأذنوه أن يكذبوا على كعب ليحتالوا عليه ويخدعوه، ليمكنهم أن يدخلوا عليه حصنه ويغتالوه، فأذن لهم أن يأخذوه بما شاءوا من الكذب

والخداع، فذهب محمد إلى كعب فقال له: إن هذا الرجل ـ يعنى نبيكم ـ قد سألنا صدقة، ونحن ما نجد ما نأكل، وإنه قد عنَّانا، وإنى قد أتيتك أستسلفك.

فقال كعب له: وأيضا والله لتملنه فقال محمد: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه؟ فقال كعب: ألم يأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل؟ فلم يزل به محمد حتى رضى أن يرهنه سلاحه على أن يسلفه وسقًا أو وسقين، وكذلك فعل الذين تآمروا معه على اغتياله، وكانوا يريدون من رهن السلاح ألا ينكره عليهم إذا أتوا ليغتالوه، ثم أتوا إليه ليلا فنادوه فنزل إليهم، فتحدثوا نحو ساعة، ثم طلبوا منه أن يخرج معهم إلى شعب قريب من حصنه ليتحدثوا به بقية ليلتهم، فخرج معهم حتى بعدوا به عن حصنه فاغتالوه، ثم جزوا رأسه فحملوه فى مخلاة كانت معهم إلى نبيكم.

وليت أمر نبيكم وقف عند حد أخذ الرجال بالخداع فى السلم، بل تعداه إلى اغتيال النساء أيضًا، كما اغتال عصماء بنت مروان، وكان الذى اغتالها عمير بن عوف، وقد ذهب إليها فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وكان حولها نفر من ولدها ينام، ومنهم من ترضعه، وكان عمير ضعيف البصر، فجسها بيده فوجد صبيها يرضعها، فنحاه عنها، ثم وضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها.

●● محمد: إن كعبًا وعصماء كانا يقيمان حربًا على الإسلام فلم يكونا مسالمين حتى تنتقد أخذهما بالخداع، وذلك أن كعبًا أبى أن يدخل فيما دخل فيه اليهود من عهد المسلمين وجعل يجاهر الإسلام بالعداء، ويحرض القبائل على قتاله لتبقى على جاهليتها وشركها، متنابذة متفرقة،

يقتل بعضها بعضًا، وينهب بعضها بعضًا، ولا تنهض بهذا الدين الذى يوقظها من غفلتها، ويقضى على أطماع أمثاله الذين استغلوا جهلها فى نهب أموالها بالربا الفاحش، وغيره من وجوه الكسب الآثم، فلا حرج على الإسلام فى أن يقضى على مثل هذا الرجل الذى يحاول قتل أمة بأسرها، ليقيم له ثروة على أشلائها، ويتنعم بفقرها وشقائها، فليذهب كعب ليحيا شعب، وليذهب غيره من كل جبار عنيد، يرى فى صلاح حال الناس خطرًا على نفسه، لأنه لا يعرف إلا مصلحته.

وكذلك كانت عصماء بنت مروان، كانت تعيب الإسلام، وكانت تحرض على النبى ﷺ.

● القس: إذا كان كعب قد ارتكب جريمة التحريض على الإسلام، فإنه كان الواجب أن يحاكم عليها، لا أن يغتال بذلك الشكل.

●● محمد: كيف يحاكم المحارب أيها القس الفاضل؟ إن المحاكمة إنما تكون لمن يذعن للحاكم، ويعترف بسلطان له عليه، وكعب لم يكن يذعن للنبى ﷺ، ولم يكن معترفًا بسلطان له عليه، فلو حاكمه لكان حكمه عليه منتقدًا، لأنه لا يقبل حكم عدو على عدوه.

● القس: إذا لم تكن محاكمة كعب ممكنة فإنه كان الواجب أن يؤخذ علنا، وما كان يصح أن يؤخذ بالخداع كما أخذ.

●● محمد: إذا كان كعب محاربا فإنه يؤخذ بأى طريق يمكن، وقد كان الطريق الذى أخذ به أسلم وأنسب للعهد الذى كان بين المسلمين وغيره من اليهود، لأنه لو حورب علنا لقابل الحرب بالحرب، ولحمل هذا بعض اليهود على أن ينضم إليه، فينتقض ذلك العهد الذى حقنت به دماء الفريقين، وتذهب فى ذلك دماء كثيرة لا يعلمها إلا الله.

أما اغتيال كعب بذلك الشكل فإنه يجعل اليهود أمام أمر واقع، وهى سياسة حكيمة تهون ذلك الأمر على أصحابه، وتسهل عليهم الرضا به، فلا تقوم به حرب، ولا ينتقض به عهد، ولاسيما أن من يغتال لا يقر باغتياله، فتذهب فى ذلك الظنون، ولا يعرف من اغتال بيقين.

● القس: لا شك أن هذه سياسة إنسانية، وليست فى شىء من الوحى الإلهى، والأنبياء يأخذون أمورهم بوحى الله لهم، ولا ينفردون بشىء قد يخطئون فيه.

●● محمد: نعم هذه سياسة إنسانية أيها القس الفاضل، وقد ذكرت لك فيما سبق أنه لابد أن يتصرف كل نبى فى بعض أحواله كإنسان، ليكون هذا دليلا على أنه لم يخرج برسالته عن أن يكون بشرًا، فلا يغلو أتباعه فى أمره، ولا يعتقدون فيه أنه إله أو ابن إله.

ويجب أن تعرف بعد هذا أيها القس الفاضل أن استعمال الخداع فى الإسلام لم يكن إلا عند الضرورة القصوى، وهى حوادث معدودة لا تجاوز أصابع اليد.

ثم قال له:

فلنكتف بهذا القدر فى هذه المناظرة، لننتقل منها إلى المناظرة الثامنة عشرة.

المناظرة الثامنة عشرة

أراد القس (ز) فى هذه المناظرة أن يضرب آخر سهم فى كنانته، وظن أنه يأخذ به محمدا وينتصر عليه، فلما عجز عن إدراك غايته منه فى كل المناظرات السابقة، استعان عليه هذه المرة بما جاء فى كتاب (تنوير الأفهام فى مصادر الإسلام) للدكتور سنكلير تسدل، ليثبت له أن الإسلام دين ملفق من بعض عادات العرب فى الجاهلية، ومن بعض شرائع الصابئة وغيرها من الديانات القديمة، وليس منزلا من عند الله تعالى، وقد ابتدأ المناظرة فقال:

● القس: سأقيم لك يا محمد الدليل القاطع على أن أكثر القرآن وأغلب شرائعه مأخوذ من الأديان الأخرى، ومن الكتب التى كانت موجودة فى أيام نبيكم، ولا تزال موجودة فى أيامنا.

●● محمد: هات ما عندك من هذا أيها القس الفاضل، فإن غايتنا إنما هى معرفة الحق، ولا غاية لنا سواه من هذه المناظرات.

● القس: إن الإسلام أخذ كثيرًا من عادات العرب فى جاهليتهم، فجعلها شرائع منزلة من الله تعالى، ومن هذا أنهم كانوا لا ينكحون

الأمهات والبنات، وكان أقبح شيء عندهم الجمع بين الأختين، وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه، ويسمونه الضيزن، وكانوا يحجون البيت، ويعتمرون، ويحرمون، ويطوفون، ويسعون، ويقفون المواقف كلها، ويرمون الجمار، ويغتسلون من الجنابة، وكانوا يداومون على المضمضة، والاستنشاق، وفرق الرأس، والسواك، والاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى، إلى غير هذا مما أخذه الإسلام عنهم.

●● محمد: ليس هذا فى شيء من الإنصاف أيها القس الفاضل، فهل كنت تنتظر من الإسلام أن يترك هذه العادات الحسنة؟ لئلا يقال عنه بغير حق أنه أخذها من العرب، ثم جعلها شرائع منزلة، أما إنه لو تركها إلى ما يخالفها لم يكن شرعًا منزلا، لأن الشرع المنزل يقر ما يقره غيره من الحسن، ويرفض ما يرفضه غيره من القبيح، ولو فعل خلاف هذا كان جهلا، ولم يكن شرعا منزلا.

لقد كان العرب يعبدون الأصنام، ويئدون البنات، ويعيشون عيشة كلها جهل وآثام، فلم يقر الإسلام شيئا منها، وأقر تلك العادات القليلة المستحسنة، وقد قال النبى ﷺ: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق فمن وظيفته أن يقر ما كان حسنًا منها قبله، وأن يدعو إلى ما بعث به من الأخلاق الكريمة الجديدة، حتى يكمل الجديد نقص القديم، ولا تضيع ثمرة الأخلاق الفاضلة فيما يطغى عليها من الرذائل، ولا يحتجب نورها فى ظلام المفاسد.

● القس: لقد دعا جماعة من حنفاء العرب إلى مثل ما دعا إليه نبيكم من التوحيد وغيره، ولم يدعوا أنهم يوحى إليهم كما ادعى، وقد اجتمعت

قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم، فخلص منهم أربعة نفر نجيًا: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض، تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به! لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم، التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة فأخذ بالنصرانية، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه حتى أدركه الإسلم فأسلم، ثم هاجر إلى الحبشة فتنصر بها، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر، وأما زيد ابن عمرو فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، ونادى قومه يعيب ما هم عليه.

فعن هؤلاء الحنفاء أخذ نبيكم دعوته، وقد كان معاصرا لهم، وكان بينه وبين بعضهم قرابة، ثم ادعى من الوحى فيها ما لم يدعوه لأنفسهم.

●● محمد: شتان بين دعوة نبينا ودعوة هؤلاء الحنفاء، لقد كانوا يبحثون عن دين إبراهيم، وينظرون فى هذا إلى الماضى، ولا ينظرون إلى الحاضر والمستقبل، فلم يكن عندهم اتجاه إلى دعوة جديدة، ولا تفكير فى دين جديد، ولهذا قنع ثلاثة منهم بالنصرانية، ووجدوا فيها ما يكفى هذه الغاية القريبة، ويرضى هذه الرغبة المحدودة، أما رابعهم وهو زيد بن عمرو فرضى بما أمكنه أن يصل إليه من دين إبراهيم، على ما أداه إليه اجتهاده، والاجتهاد يقوم على الظن، ولا يصل إلى اليقين، ولهذا كان يقول

لقومه: يا معشر قريش، والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ثم يقول: اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكننى لا أعلمه ثم يسجد على راحته.

فأين هذا من تلك الدعوة الجديدة التى قام بها نبينا؟ وأين هذا من ذلك الدين الجديد الذى هز العالم من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، وقوض ممالك كسرى وقيصر، وتضاءلت أمامه الأديان القديمة كلها، وانهزم أمام تجديده جمودها.

لقد اقتصرت دعوة زيد بن عمرو على هذه الأمور:

١) رفض عبادة الأصنام.

٢) الإقرار بوحدانية الله.

٣) الإيمان بالثواب والعقاب.

٤) منع وأد البنات.

فأين هذه الأمور الأربعة من ذلك البحر الخضم من التشريع، فى العقائد، وفى العبادات، وفى المعاملات؟ ذلك التشريع الذى غالب تشريع الرومان فغلبه، وغالب فلسفة اليونان فغلبها، وغالب العصور فلم تَبْلَ عليها جدته، فهل كان هذا كله يتسنى لرجل أمى فى بيئة أمية؟ كلا ثم كلا، إنه ليس إلا الوحى الإلهى الذى وصل به إلى هذا كله، وجعله يقصد بدعوته العالم كله، وهو لا حول له ولا قوة، وليس لأمته من الدولة ما لغيرها من الأمم.

● القس: لقد كان يوجد بين العرب طائفة من الصابئين، وأصل

الصابئين من السريان، وهم يدعون أن ملتهم مأخوذة عن شيث وإدريس، ولهم سبع صلوات منهن خمس توافق صلوات المسلمين فى أوقاتها، والسادسة صلاة الضحى، وهى موجودة أيضا عند المسلمين، ولكنها عندهم مندوبة لا مفروضة، والسابعة وقتها فى تمام الساعة السادسة من الليل، ولهم صلاة أخرى على الميت بلا ركوع ولا سجود، وهم يصومون شهرًا فى السنة مثل المسلمين، وصومهم من ربع الليل الأخير إلى غروب الشمس، وهو فى هذا يقرب من صوم المسلمين أيضا.

فهل مثل هذه الاتفاقات الغريبة تكون عن طريق المصادفة؟ كلا ثم كلا وإنما أخذ نبيكم صلاة الصابئة وصومهم، ثم ادعى أنه أوحى إليه بهما.

●● محمد: لتعلم أيها القس الفاضل أنه ليس من المعقول أن يأتى نبينا فى آخر الأنبياء، ليصحح ما حرف من شرائعهم، ويكمل ما نقص منها، ويأتى بشريعة كاملة تختم بها الشرائع، ثم لا يكون هناك بعض توافق بين شريعته وهذه الشرائع فى الأصول الأولى لها، من توحيد وصلاة وصوم وغيرها، لأن هذه الأصول لا يمكن أن يحصل فيها تغيير أو تبديل، بل يجب أن تكون الدعوة فيها واحدة، ولهذا قال الله تعالى فى سورة الشورى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣).

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

فلا غرابة فى أن يكون فى الإسلام صلاة توافق أوقاتها بعض أوقات الصلاة فيما سبقه من الشرائع، ولا غرابة فى أن يكون فيه صوم يشبه بعض المشابهة الصوم فى هذه الشرائع، وهذا أقرب إلى أن يكون دليلا على أنه يوحى إليه به حقًا، لأنه لو كان يدعى الوحى ادعاء لتحرَّز عن مثل هذا، لأن الكاذب يجتهد ما أمكنه فى إخفاء كذبه، ولا يأتى بما يمكن أن يطعن به فى أمره.

وقد أتى بعد موسى أنبياء لا يحصون عدًّا، ولم يكن لهم شرائع جديدة بعثوا بها، وإنما كانوا مقررين لشريعة التوراة التى أنزلت على موسى، حتى إن عيسى عليه السلام أتى مقرِّرا للتوراة أيضًا، ولا تخالف شريعته شريعتها إلا فى أمور قليلة، وقد قبلتم هذا فى أنبيائكم أيها القس الفاضل، مع أن شريعتنا أدركت ما قبلها من الشرائع وقد غُيِّرت وحُرِّفت فأصلحت منها ما أصلحت، وزادت فيها ما زادت، حتى أتت شريعة كاملة متميزة عن غيرها من الشرائع، ولا توافقها إلا فى الأصول التى لا يمكن أن تتغير بمرور الزمن، فهل من الإنصاف أن تقبلوا ذلك من أنبيائكم وتنكروا هذا عليها؟ وهى بحكم أنها آخر الشرائع لا يمكن أن تخلوا منه.

● القس: لقد ورد فى كتاب (أفستا) لزرادشت الفارسى[1] أن الإنسان له حياة تكليف هى الحياة الدنيا، وحياة جزاء هى الحياة الأخرى، وله كتاب تحصى فيه أعماله، فإذا مات حلقت روحه فوق جسده ثلاثة أيام، تنعم فيها أو تشقى، ويقوم فيها أهله بالشعائر الدينية إيناسا لها، ثم

(١) اختلف فى تاريخ وجوده على أقوال كثيرة تتردد بين ستمائة سنة وستة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح.

تحاسب بعد هذا فتمر على صراط ممدود على شفير جهنم، فإذا كانت مؤمنة اتسع هذا الصراط لصاحبها حتى يصل إلى الجنة، وإذا كانت كافرة رق هذا الصراط حتى يكون أرق من الشعرة، فلا يمكن صاحبها أن يجتازه، بل يسقط فى جهنم، وإذا استوت حسنات شخص وسيئاته حجز فى الأعراف حتى يفصل فى أمره، فيدخل النار أو الجنة.

وقد أخذ هذا نبيكم وجعله وحيا منزلا عليه، مع أنه موجود فى ذلك الكتاب منذ مئات السنين.

●● محمد: شأن هذا أيها القس الفاضل شأن التوحيد والصلاة والصوم وغيرها من الأصول التى لا تتبدل فى سائر الشرائع.

● القس: هل تذهبون يا محمد إلى أن زرادشت كان نبيا؟

●● محمد: لا يوجد عندنا أيها القس ما يمنع أن يكون زرادشت نبيًا، وقد قال تعالى فى سورة فاطر: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ (فاطر: ٢٤).

● القس: لقد ذكر زرادشت فى كتابه (أفستا) أن هناك إلهين: أحدهما للخير، وثانيهما للشر فكيف يكون مع هذا نبيا؟

●● محمد: إله الشر فى هذا الكتاب هو إبليس، وقد يكون الاعتقاد فى ألوهيته من تحريف الفرس فى ديانة زرادشت.

● القس: إن بعض القصص الواردة فى القرآن مأخوذة من بعض الكتب الخرافية عند اليهود، ومن بعض الكتب المرفوضة فى النصرانية، مثل قصة قابيل وهابيل الواردة فى سورة المائدة: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ

ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧، ٣١).

فهذه القصة لم ترد فى التوراة بهذا التفصيل، وإنما وردت فى الترجوم المسمى «بيروشلى» وغيره من الكتب اليهودية الخرافية.

●● محمد: نحن لا يهمنا أن توجد القصص القرآنية فى توراتكم أو فى أناجيلكم التى تقبلونها أو فى غيرها، وإنما يهمنا هذه القصص فى ذاتها، وهناك قياس تقاس به القصص الصحيحة والخرافية، فيجب أن يرجع إلى هذا القياس فى الحكم على القصص، ونحن نقبل هذا الحكم عن طيب خاطر.

وقصص القرآن من موافقة هذا القياس بمكان، ولا يضير القرآن بعد هذا وجودها قبله فى أى كتاب من الكتب، وهذا إلى أن القرآن يسوق قصصه للموعظة الحسنة، فيكون المهم فيها ما تشتمل عليه من مواعظ، وما ترمى إليه من غايات ثم قال للقس:

إن عندنا كتابًا يسمى (العقائد الوثنية فى الديانة المسيحية) فأتونا بمثل هذا فى الإسلام، فإنه لا يضيره أن توجد فيه عقيدة صحيحة وجدت

فى غيره، وإنما يضيره أن يوجد فيه من العقائد الوثنية مثل ما وجد فى المسيحية.

وهنا رأى القس أنه ضرب آخر سهم فى كنانته فطاش كما طاشت سهامه قبله، فترك الأمر لمحمد فى المناظرة التاسعة عشرة.

المناظرة التاسعة عشرة

ابتدأ محمد هذه المناظرة، لأن القس (ز) أتى بآخر ما عنده فى المناظرة الثامنة عشرة، وقد مكث كثيرا يقف من محمد موقف المعترض، ويقف محمد منه موقف المجيب، فتغير الموقف فى هذه المناظرة، وابتدأ محمد الكلام فيها فقال محمد: قد تبين لك الآن أيها القس الفاضل لماذا أنا مسلم؟ وقد شرحت لك فى هذا أصول الإسلام وفروعه، فلم أجد فى أصل أو فرع منها ما يحتاج إلى تحوير يخرج به عن قاعدته الأولى، أو يخرج بالإسلام عن طريقه الأول، وإنما هى أصول وفروع ثابتة كما أنزلت، لا تغيير فيها ولا تبديل، ينادى بها المسلم فى كل عصر وجيل، ولا يجد فيها ما يضطره إلى أن يتراجع بها إلى الوراء، أو ينحرف بها ذات اليمين، وذات الشمال.

● القس: لا حاجة بنا إلى هذا الكلام يا محمد، فماذا بعد هذا؟

●● محمد: لقد أردت أن أسألك فى هذه المناظرة: لماذا أنت مسيحي؟ حتى يعرف الناس الموازنة بين جواب هذين السؤالين للمسلم والمسيحى:

١) لماذا أنا مسلم؟

٢) لماذا أنا مسيحي؟

● القس: عندنا كتاب يسمى (لماذا أنا مسيحي) ألفه الدكتور فرانك كراين، ونقله الأرشمندريت أنطونيوس بشير إلى العربية، فيمكنك يا محمد أن تطلع عليه، وتعرف منه ما تريد من جواب هذا السؤال ـ لماذا أنا مسيحي؟

●● محمد: لقد اطلعت على هذا الكتاب، وسأجعله موضوع هذه المناظرة، وسيكون ما فيه حجة عليكم بعد أن اعترفت لى به.

لقد قال مؤلف هذا الكتاب فى ص ـ ٢١ ـ منه: تحت عنوان (لماذا أنا مسيحي):

إن الخلافات المستحكمة على ممر الأجيال بين الطوائف المسيحية لا أثر لها فى ذهنى ألبتة، فإذا سألتنى هل أنا مؤمن بالتثليث أو موحد، فكأنما تسألنى هل أنا بابوى أو ضد البابا؟ ثم يقول: إننى أود أن أشرح الأسباب التى تجعلنى أسمى نفسى مسيحيا، وسيساعد هذا كثيرًا من المسيحيين على فهم مسيحيتهم، لأن هناك كثيرًا ممن يسمون أنفسهم مسيحيين يعملون خلاف ما تطلبه المسيحية منهم، وهناك كثير يعملون بالمسيحية وإن لم يسموا أنفسهم مسيحيين.

ثم ختم هذا بقوله: فإذا سألتنى هل أنا مؤمن بالتثليث أو موحد؟ كاثوليكى أوبروتستنتي؟ مثوديستى أو معمداني؟ فكأنما تسألنى هل أنا بابوى أو ضد البابا.

وقد جاء مثل هذا فى ص ٢٣٧:

وأما موضوع الثالوث، فسواء أكان الله واحدا فى ثلاثة أقانيم (الأب

والابن وروح القدس) أم كان إلهًا واحدا بغير أقانيم، فإن ذلك موضوع لا أستطيع أن أفهمه، وهو أسمى من أن يبلغ فكرى إلى إدراكه، وهو لا يؤثر فى حياتى المسيحية ما دمت مؤمنا بتأثير هذه القوة الإلهية العظيمة فى جميع مظاهر حياتى، وأما ما يراه الناس من أن الله يغضب علىَّ إذا لم أؤمن بموضوع لا أفهمه فهو فى عقيدتى وهم لا حقيقة له.

وجاء مثله أيضا فى ص٢٥٦:

إننى واثق كل الثقة أن كثيرًا من قراء هذا الكتاب سيقولون إن مؤلفه لا يصح له ألبتة أن ينتمى إلى دين من الأديان، أو أن يدعى أنه مسيحى من أبناء الإيمان، وعندى أن أمثال هؤلاء القراء محقون فى قولهم إلى حد محدود، فإننى فى الحقيقة كافر فى نظر أكثر المذاهب والطوائف التى يخيل إليها أنها مسيحية، لأنى أعتقد أن أكثر مبادئها وثنية صرفة وكذلك جاء فى ص ٣٩ تحت عنوان (إن إيمانى بالمسيح غير مبنى على شهاداته الرسمية):

إننى أؤمن بيسوع وأتخذه معلمًا لى، وأسمى نفسى تلميذًا له، ولكن القوة التى تدفعنى إلى هذا إنما هى مستمدة من أقواله وأفعاله المدونة على صفحات الإنجيل، فأنا لا أؤمن بيسوع لأنه ابن الله فحسب، لأن فريقًا من الناس يقول إنه كان إلها حقيقيا، وفريق آخر يقول إنه لم يكن إلا رجلا عظيما، وإنما أعتقد أنه معلمى الوحيد، ولا فرق عندى بين أن يكون إلهًا هبط من السماء وقضى بضع سنين على الأرض، وأن يكون إماما من كبار الحكماء، وقد عاش عمره كما يعيش جميع الأحياء، ففى الحالتين أرى أن ما قاله وما عمله كاف لتعليمى وسعادتى.

فما هذا أيها القس الفاضل؟ أليس هو فى الأقل عجزًا عن إثبات عقيدة التثليث؟ أليس هو فى الأكثر تشكيكا فيها وكفرًا بها؟

وما هى عقيدة التثليث؟ أليست أولى عقائد نصرانيتكم؟ أليست أهم شىء فيها؟

أجبنى أيها القس الفاضل.

● القس: نعم هذا شك أو كفر بعقيدة التثليث، وليس هو من نصرانيتنا فى شىء.

●● محمد: لقد جاء أيضا فى ص١٥٩ ـ من هذا الكتاب تحت عنوان (الوهم فى السلامة):

أكثر الناس يعتقدون أن المسيحية إنما جاءت إلى العالم لكى تؤكد لنا خلاصنا من خطايانا، أو بعبارة أخرى ـ لكى تحافظ على سلامتنا.

ثم قال بعد هذا:

إن السعادة الحقيقية فى الحياة إنما هى السعادة التى تنالها فى عملك يوما فيوما، وأما السعادة التى تحلم أنك ستنالها فى المستقبل البعيد فهى أشبه بالسحابة التى تبدو لك جميلة بهية عند غروب الشمس، لأنها تكون بعيدة عنك، فإذا بلغت إليها ظهر لك أنها ليست سوى ضبابة مظلمة.

إلى أن قال: وفى الدين نفسه قد أسأنا فهم الخلاص ولم نعرف كيف نستثمره، فقد خيل إلينا أن بركة الحياة إنما تتم لنا بالانفلات منها إلى حياة غيرها بعد القبر، ولكن بركة الحياة يجب أن تكون فيها، والخلاص لا

يصح أن يكون قوة تنقذنا من العالم، بل يجب أن يكون قوة ترفع نفوسنا إلى أسمى درجات الكمال، حتى نحيا حياة تفيض غبطة وبركة.

إلى أن قال: وشد ما يخطئ الذين يستعملون كلمة (خلاص) فى معنى الإنقاذ من عذاب نار الجحيم بعد الموت، لأن هذه العقيدة ليست من المسيحية فى شىء، بل هى عقيدة وثنية قديمة مأخوذة عن خرافات اليونان والمصريين وعقائدهم السرية فى العالم الثانى.

فما هذا أيها القس الفاضل؟ أليس كفرًا صريحًا بعقيدة الخلاص؟ وما هى عقيدة الخلاص؟ أليست من أهم عقائد نصرانيتكم؟ أليس إنكارها إنكارا لعقيدة الصلب والفداء أيضًا؟ وما هذا التشكيك فى العالم الثانى بعد الموت؟ وهل هو حقيقة عقيدة وثنية مأخوذة عن خرافات اليونان والمصريين؟ أجبنى أيها القس الفاضل.

● القس: نعم هذا كفر بعقيدة الخلاص، وليس هو من نصرانيتنا فى شىء.

●● محمد: وقد جاء أيضًا فى ص ١٨٩ من هذا الكتاب فى ختام فصل عنوانه (الوهم فى تقسيم الناس إلى طبقات):

ورب قائل يقول: إن المسيحية قد كانت فى جميع أطوارها خيبة وفشلًا لأصحابها، فلمثل هذا نقول مع المستر تشاسترتون: إن المسيحية لم توضع مبادئها فى بوتقة الاختبار بعد، ليجرأ أحد على الحكم عليها، ولكن إذا كان العالم بأسره أو أى قسم من أقسامه يجرب تعاليم يسوع المسيح ومبادئه، فحينئذ يحق لهم أن يحكموا عليها من نتائجها. ولكن مادمنا نحصر مسيحيتنا فى إنشاء الترانيم، وتلاوة الصلوات، وتطبيق طقوسنا

وتقاليدنا على طقوس الوثنيين وتقاليدهم فى عبادتهم، فإنه لا يحق لنا ألبتة أن نحكم على المبادئ المسيحية.

ثم يقول فى هذا المعنى تحت عنوان (كيف أفهم الدين) فى ص ٢٠١:

إن يسوع جاء إلى العالم لكى يعلم الناس كيف يعيشون فيه، ولم يأت ليؤسس ديانة جديدة تنسب إليه.

إلى أن قال: فإذا تكلمت عن ديانة يسوع فإنى أتكلم بشك وريبة، لأنى لا أثق فى أن يسوع كان معلم دين وطقوس: فإن كلمة دين لم تستعمل إلا مرة واحدة فى العهد الجديد وإننا نعرف بقدر استطاعتنا أن يسوع لم يستعمل هذه الكلمة قط، ولهذا يخيل إلىَّ أنه كان خبيرا عارفًا بأسرار الحياة أكثر مما كان عالمًا من علماء الدين، فقد بلغ أسمى درجات المعرفة، وأدرك كنه الشرائع العظيمة التى تدبر سبل الحياة فى هذا الوجود، ولكنى أشك كثيرًا فى أنه أراد أن يؤسس ديانة جديدة، كما أشك فى أنه أراد أن يؤلف حزبًا أو طائفة تنسب إليه.

فهل هناك أيها القس الفاضل أشد من هذا إنكارا لنصرانية؟ وهل هناك أشد من هذا إنكارا لما جاءت به من طقوس وعبادات؟ وهل هناك أشد من هذا إنكارا لأنها دين من الأيان؟

فماذا بقى من المسيحية بعد هذا يصح أن يكون جوابًا لهذا السؤال:

لماذا أنا مسيحي؟

الحق أيها القس الفاضل أن ما فى هذا الكتاب يناقض اسمه كل المناقضة، وأن الأولى به هذا الاسم:

لماذا أنا غير مسيحي؟

فلم يقل القس (ز) شيئا، وطلب من محمد أن يكتفى بهذا القدر فى هذه المناظرة، ثم اتفقا على أن يختما هذه المناظرات بالمناظرة الآتية، وهى المناظرة العشرون، وقد وعد القس (ز) محمدا بأنه سيبوح له فيها بسر عظيم.

وهو سر سيبين الغاية الخفية التى يسعى إليها المبشرون المسيحيون، ويبين كيف تنفق الحكومات الأوروبية والأمريكية ما تنفقه من الأموال عليهم، مع أنها حكومات مدنية لا يعنيها أمر الدين.

المناظرة العشرون

أراد القس (ز) أن تكون هذه المناظرة آخر المناظرات، لأنه وجد من محمد مناظرا قوى الدليل، ناهض الحجة، حاضر البديهة، وقد ابتدأ المناظرة فقال:

● القس: إنا إذا سلمنا لكم صحة دينكم فإنه لا يلزمنا أن نترك ديننا إليه، لأن قرآنكم ورد فيه ما يشهد ببقاء ديننا إلى يوم القيامة، وهذا فى قوله فى سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٢، ٥٧).

فلا شك فى أننا أتباع عيسى، وقد شهد القرآن بأنه سيجعلنا فوق الذين كفروا به إلى يوم القيامة، ثم يوفينا على الإيمان به أجورنا فى الآخرة.

فليكن لكم أيها الفتى دينكم ولنا ديننا.

●● محمد: هذا يصح لكم أيها القس الفاضل لو كان القرآن يريد بقوله ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أصحاب هذه النصرانية المحرفة، وحاشا له أن يريدهم منه، وإنما الذين اتبعوه هم المسلمون أتباع محمد ﷺ أما اليهود فقد كذبوا به، وأما النصارى فقد كذبوا عليه وحرفوا دينه، والمراد

أن الذين اتبعوه فوق غيرهم بقوة الحجة فى كل الأزمان والأحوال، وبالغلبة والسلطان عند ظهورهم وتمسكهم بدينهم، وقد صح حمل هذا على المسلمين لأنهم اتبعوه فى أصل الإسلام، وإن خالفوه فى فروعه، ويجوز أن يضاف النصارى قبل الإسلام إلى المسلمين فى هذه التبعية، لأن النصارى اتبعوه فى الجملة إلى ظهور الإسلام، فلما جاء الإسلام وبين لهم ما حرفوه فى دينه زال عنهم هذا الوصف، وانتقل إلى المسلمين لأنهم صاروا أولى به منهم، كما أنهم أولى بسائر الأنبياء من غيرهم، وقد نص الله تعالى على هذا المعنى فى سورة البقرة، وصرح بأنا أولى بعيسى والأنبياء من قبله فقال فى هذه السورة: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٠، ١٣٤).

فالمسلمون هم الذين يؤمنون حقيقة بما أنزل على أولئك الأنبياء السابقين، أما هؤلاء اليهود والنصارى فليسوا منهم ولا هم منهم فى شيء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾(البقرة: ١٣٤).

وإذا كان هذا شأن المسلمين فإنهم يكونون الذين ورد فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ (آل عمران: ٥٥).

ولا يكون أتباعه هؤلاء النصارى الذين انحرفوا عما جاء به إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى، وصاروا أقرب إلى الوثنية منهم إلى الحنيفية التى هى أصل الإسلام واليهودية والنصرانية.

● القس: إذا كنا معشر النصارى قد انحرفنا عن ديننا فأنتم معشر المسلمين قد انحرفتم عن دينكم أيضا، وأنتم تعترفون بهذا ولا تنكرونه، وتنسبون إليه ما حاق بكم فى هذه الأيام من المصائب والأهوال، فلا فرق فى هذا بيننا وبينكم ولا حق لكم فى الفخر بدين ضيعتموه واتبعتم فيه سنن من كان قبلكم، ممن تعيبون عليهم تحريفهم لدينهم، وتدعون أن دينكم أتى لإصلاح ذلك التحريف الذى وقع منهم.

●● محمد: أنا لا أنكر أيها القس الفاضل أنا قد انحرفنا عن ديننا، وأن هذا سبب هذه المصائب والأهوال التى تنزل بنا، ولكن انحرافنا عن ديننا لا يذكر مع تحريفكم لدينكم، فإن تحريفكم وصل إلى أصول عقائدكم فأفسدها، وإلى كتبكم المنزلة فأضاع بعضها وغير بعضها، أما نحن فأصول ديننا باقية على حالها، وكتابنا قد حفظه الله من التغيير والتبديل، وتعهد بحفظه لنا، فقال فى سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ثم إنا مع هذا نعمل على إصلاح فسادنا، ونأخذ فى تطهير ديننا من البدع التى حشرت فيه، وهى مهمة سهلة إن شاء الله تعالى، أما أنتم فجامدون على تحريفكم، لأن إصلاحه يقضى على دينكم من أساسه، ويؤدى بكم إلى الدخول فى ديننا وأنتم لا تريدون ذلك.

● القس: إنك إذن أيها الفتى فى حاجة إلى العمل فى إصلاح دينك، فيحسن بك أن تأخذ نفسك بالعمل فيه، وليبارك الله فيك لأهلك.

ثم أعلن القس (ز) انتهاء المناظرة، وأخذ محمدا إلى حجرته بتلك الدار، وأفضى إليه بما أراد أن يخفيه عن غيره، فقال له:

قد بلغت منى يا محمد ما بلغت، وليتنى لم أجتمع بك، ولم أفتح باب الجدال معك، فسأحيا بعد هذا منغص العيش، مشتت الفكر، وإنى يا بنى رئيس هؤلاء المبشرين المسيحيين بدياركم، ولنا غايات سياسية أخرى نعمل لها، وهذه الغايات الدينية ليست عندنا إلا وسيلة لهذه الغايات ويكفيك هذا منى يا محمد، فاذهب يا بنى إلى عملك فى مدرستك ودعنا نعمل لتلك الغايات الخفية.

فتركه محمد ومضى إلى أبيه فقص عليه ما أسر به القس (ز) إليه، فعجب لإيثار هؤلاء الناس مصالحهم الدنيوية على مصالحهم الأخروية، وذكر له قوله تعالى فى سلفهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

صدق الله العظيم

٢٣ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ

١٣ من يونية سنة ١٩٣٦م.